

مختار من الأدب العربي القديم

دراسة فنية

تأليف

د. محروس منشاوي الجالي

أستاذ الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا — القاهرة
ت. ٩٢٠٨٦٨ — ٣٩١٩٣٧٧



مختار من الأدب العربي القديم

دراسة فنية

تأليف

نور منشاوي الجالي

أستاذ الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية

الناشر : مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا — القاهرة

ت ٩٢٠٨٦٨ — ٣٩١٩٣٧٧

محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
قصيدة البارودى فى الغزل	٧
قصيدة البارودى فى حرب البلقان	٢٠
قصيدة حافظ فى استقبال اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى	٥٤
تحليل القصيدة وعناصرها الفنية	٦٤
دراسة عن حافظ وتفاوته ومكانته الشعرية	٧٢
قصيدة أيها النيل لشوقى	
تحليل القصيدة ونقدها	٨٧
دراسة عن شوقى ومنزلته فى الشعر العربى الحديث	١٠٧
قصيدة المساء لمطران - دراسة تحليلية	١١٥
دراسة من مطران	١٢٨
قصيدة الاطلال لابراهيم ناجى	١٣٦
دراسة وتحليل ودراسة	١٣٩
دراسة عن ناجى ومذهبه الشعرى	١٥٢
قصيدة النهر المتجمد دراسة وتحليل ونقد	١٥٥
ثانيا - منتجات من النشر	١٦٩
الرسالة البكرية لجفنى ناصف	١٧١
حرية الفكر للعقاد	١٧٦
الحاضنة للدكتور طه حسين	١٨٣
قرءان الفجر للزيات	١٩١
الوطن العربى لجبران	٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

وبعبد .

فهذا كتابنا — منتخبات من الأدب العربي الحديث — وهو عبارة عن مجموعة من النصوص الأدبية — الشعرية والنثرية — التي تمثل اتجاهات الأدب الحديث وتكشف عن أصالته وخصائصه ، وتبين روافده وقيمه وحظ كل عنصر من عناصره ، ومزايا كل أديب وثقافته وطاقته من خلال استبطان هذه النصوص ودراستها والتعمق فيها لبيان ما تتميز به كل نص من قيم فكرية وفنية وما اتسم به من سمات شعورية أو جمالية .

ومنهجى فى هذه الدراسة يقوم على سرد النص وشرح مفرداته اللغوية وإيضاح معناه ، ثم اتبعه بدراسة تحليلية نقدية عنيت فيها بدراسة كل عنصر من عناصر النص فى حيدة وموضوعية ، مطبقا ، جهد طاقتي — مقاييس النقد الأدبي الحديث على دراستي ، ثم أتبعته كل دراسة نقدية بدراسة تاريخية موجزة عن صاحب النص وثقافته وروافده هذه الثقافة وطبيعة المذهب الأدبي الذى ينتمى إليه صاحبه ، لأن النص قطعة من وجدان الأديب — كما يقولون — وقد تضمنت هذه الدراسة خصوصا لأعلام بارزين هم : البارودى ، حافظ ، شوقي ، مطران ، ناجى ، نعيمة ، حفنى ناصف ، والمعقاد وطه حسين ، الزيات ، جبران • وبدهى فسان أدبنا العربى الحديث والمعاصر منوع الفنون متعدد الاتجاهات ، كثير الاعلام غزير الروافد ، ويصعب على الدارس أن ينتقى من نماذجه ما يمثل كل فرائده ، أو يزيح النقاب عن قلائده ، وحسبى هذه النماذج المنتخبة والجواهر المنتقاة ، التى تدل على نفاسة هذا الأدب وأصاله معدنه

ونأمل أن نكون قد أحسبنا في الانتقاء وأجدنا الاختيار ودققنا في
الانتخاب ، ووفقنا في الدراسة والتحليل والنقد • والا فحسبنا اخلاص
العمل ونبل الهدف •

والله من وراء القصد ، وهو أحسبنا ونعم الوكيل • •

المؤلف

القاهرة في ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ

نوفمبر ١٩٨٧ م

متخفصات من الشمس

القصيدة

* من نثر البارودي في الفزل :

قال البارودي :

- ١ - عرف ، الهوى فى نظرتى فنهانى خل رعيت وداده فرعانى
- ٢ - أخفيت عنه سريرتى فونى بى دمع أباح له حمى كتمانى

١ - الهوى : الحب والغرام ، والخل : الصديق المختص ومثله الخليل ، والوداد المودة والمحبة ورعيت وداده : حفظته وأخلصته ، ورعانى : حفظانى •

والمعنى : أن الغرام اشتد بالشاعر فظهر أثره فى عينيه ونظراته ، فعرفه خليل من أخلائه انعقدت بينهما أواصر المحبة والصداقة فنهاه عن الهوى انشفاقا عليه •

٢ - السريرة : السر الذى يكتم ويراد بها هنا : ما حاول الشاعر إخفائه وكتمانته من أمر حبه وغرامه ، ووتى بها : كشفها وأظهرها ، وأباح له : جعله مباحا ، والحمى : الشيء المحمى المصون الذى لا يقرب معتد •

والمراد بالتسطر الثانى : أن دمعته كشف لخليله ما كان يحرض على كتمانته من أمر الهوى والغرام •
والمعنى : أنه كان شديد الكتمان لحبه وهواه حريصا على إخفائه عن خاصته وأخلائه ، ولما برح به الوجد غلبه البكاء ففاضت دموعه وانكشف ما كان يكتم من أمره •

- ٣ - فبأى، معذرة أكذب لوعنة شهدت بها العبرات من أجفانى
 ٤ - يا صاح لا أبصرت ما صنع الهوى بأخيك يوم تفرق الأظعان
 ٥ - يوم فقدت الحلم غيه وشفنى وله أصاب جوانحى فرمانسى

٣ - المعذرة : الحجة والعذر ، اللوعة : حرقه الحب وحرارة
 الشوق : العبرات : الدموع والأجفان : جمع جفن : غطاء العين
 من أعلاها ومن أسفلها وأراد بالأجفان عينيه •

والاستفهام فى قوله : فبأى معذرة ؟ قصد به النفى •

٤ - يا صاح : منادى مرخم أى : يا صاحبى ، « لا أبصرت » :
 جملة دعائية ، والأظعان : جمع ظعينة : المرأة فى الهودج وهو أداة ذات
 قبة توضع على ظهر الجمل لتركب فيها النساء والمعنى : يصور الشاعر
 جزعه والتياغه يوم افتراق الشمل ورحيل الطعائن ويدعو لصاحبـه
 بالآ بصر ما كابده فى هذا اليوم من تبريح الوجد وحرقه الفؤاد بارتحال
 من أحبهن وتعلق بهن •

٥ - الحلم : الأناة والصبر ، وشفنى : هزلنى وأمضنى ، والوله :
 مصدر (وله) من باب تعب ، أى اشتد حزنه حتى ذهب عقله أو تحير
 من شدة الوجد ، والجوانح : الأضلاع القصيرة مما يلي الصدر الواحدة :
 جانحة ويراد بالجوانح : ما تحتويه وتنضم عليه وهو القلب ، ورمى
 التسيء من يده ألقاه وقذفه والمراد أن الوله أصاب قلبه فسقط طريق
 الحب صريع الغرام ، وهذا البيت تفصيل لما أجمله فى البيت السابق ،
 فقد كان يوم الظعن مسيئا اليه عسيرا عليه ، إذ اشتد به الحزن وشفه
 الوله وأضناه الفراق حتى فقد حلمه ولم يجد صبورا •

- ٦ — فعليك من قلبى سلام فأنساق به — تتبع الهوى فمضى بغير عنان
٧ — هيهات يرجع بعد ما علقت به — لحظات ذاك الشادن الفتان
٨ — وعلى الرحائل نسوة عريية — يخدعن لب الحازم اليقظان

٦ — العنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، ومضى بغير عنان : أى انطلق لا يتوقف ولا يتلبث ولا يصده شىء ، ومعنى البيت : حيا الشاعر محبوبته بعد ارتحالها تحية قلبية خالصة ، وقال : ان حبه لها سيطر على قلبه فانساق للهوى ومضى فيه •

٧ — هيهات : اسم فعل ماض — بمعنى بعد فهى كامة تبعد ، وفاعل « يرجع » ضمير « القلب » فى البيت السابق ، وعلقت استمسكت به ، واللحظات : النظرات الساحرة الفاتنة ، والشادن : الخبى أى : الغزال اذا شذن أى : ترعرع وقوى واستغنى عن أمه وتشبه الحسان من النساء بالغزلان فى الرشاقة وخفة الحركة وجمال الجيد والعينين ، والفتان : صيغة مبالغة من فتن المرأة الرجل : أى : أعجبه واستهوته ودلتهته وسلبت فؤاده بالعشق •

والبيت تشبيه لحبيته بالشادن وتغزل بجمالها الفاتن واستبعاد رجوع قلبه اليه بعد ما صادته بنظراتها الساحرة •

٨ — الرحائل : جمع رحالة وهى المخرج أو الرجل وكل ما يوضع على ظهر الدابة ليركب عليه راكبها ، ويخدعن لب الحازم : أى يستملن ويستهوين عقل أو قلب الذى يتقن رأيه ويضبط أمره •

وفى هذا البيت عاد الشاعر الى تصوير هؤلاء الحسان العربيات اللائى رآهن على الرحال أو فى الهوادج مبينا كيف دلهنه وذهبن بفؤاده •

٩ - أغويننى فتبعت شيطان الهوى ان النساء حباثل الشيطان

١٠ - ما كنت أعلم قبل بادرة النوى أن الأسود فرائس الغزلان

١١ - رحلوا غايه عبرة مسفوحه ويد تضم حشا من الحفقان

٩ - أغواه اغواء : أضله واغواه ، وتبعه اذا سار فى اثره ومشى خلفه ، والشيطان : روح شرير مغو مضل ، وكل عات متهم مفسد من انجن والانس ، وشيطان الهوى : قوته العاتية الغالبة ، أو الهوى الشبيه بالشيطان فى الاغراء والاغواء والاضلال ، وحباثل جمع حباله : هى المصيدة ، والشطر الثانى : تذييل جار مجرى المثل مؤكد لمعنى الشطر الاول فالشيطان يفتن الرجال بالنساء ، وهن أشراكه وحباثله وهذا البيت تخرار لمعنى البيت السابق •

(١٠) البادرة : اسم فاعل من بدر الى الشئ أى : عجل اليه وسارع ، والنوى : البعد والافتراق ، وبادرة النوى : الفرقة العاجلة السريعة ، ويراد بالأسود هنا : شجعان الرجال وأتقواؤهم ، فرائس جمع فريسة ، الغزلان : الخباء ويراد بها هنا الحسان من النساء •

والمعنى : أن الحب قد أضناه وبرح به الوجد بعد رحيلهن فعرف أنه وقع أسير الحب صريع الغرام ، وفى البيت فخر ضمنى بشجاعته •

(١١) رحلوا : استخدم الشاعر ضمير جماعة الذكور العقلاء مع انه يتحدث عن النساء وتأويله أن الجمع هنا ينمى المرتحلين من الرجال والنساء أى : رحل الراحلون ومعهم الظمائن • أية مؤنت أى ، وهى اسم استفهام أريد به التعجب والمبالغة فى تصوير كثرة البكاء وغزارة الدموع المنسكبة ، والحشا : ما حواه الصدر ويراد به هنا القلب وحفقان القلب : اضطرابه وحركته مصدر (خفق) من بابى (نصر وصر) •

- ١٢ - ولقد حذت لبارق شخصت له منا العيون بأبرق الحسان
١٣ - يستن في عرض الغمام كأنه لهب تردد في سماء دخان
١٤ - فانظر لعلك تستبين ركابه طوع الرياح يصيب أي مكاني ؟

والمعنى : استند وجد الشاعر في اثر رحيلهن ، فعليه البداء وفأصت دموعه ، وخفق قلبه خفتاناً تسديداً فضم فوقه يديه فإنه يحشى عليه ويحاول حمايته •

(١٢) حن اليه حنيناً تاق ونزع واشتاق ، والبارق هنا : البرق وهو الضوء يلمع في السماء أي أثر انفجار كهربائي في السحاب ، وشخصت العيون انفتحت فلم تطرف ، وأبرق الحنان : موضع • والمعنى • يذكر حنينه وتوقان نفسه الى برق لمع في أبرق الحنان فاسترعى انتباهه وأثار اهتمامه ونشخص بصره اليه في تأمل واشتياق ، ولعل صلة هذا البيت بما سبقه من أبيات الغزل ان حبييته أو حبيباته رحلن الى أبرق الحنان •

(١٣) يستن : يضطرب ، عرض : وسط أو جانب أو ناحيه ، وعرض الشيء : معظمه ، والغمامة السحاب واهدته غمامة ، والبيت وصف لاستئان البرق في عرض السحاب وتشبيهه بلهب يتردد في سماء من الدخان فالغمام يشبه الدخان والبرق لهب متردد فيه •

(١٤) تستبين ركابه : تتبين وتعرف المطى أو الابل التي تتركب أو التي يراد الحمل عليها ، والركاب جمع لا واحد له من لفظه وواحدته راحلة ، وهو طوع الرياح : أي منقاد منطاع لها • يقول : ان السحاب طوع الرياح نسوقه وترجييه فانظر اليه لعلك تعرف المكان الذي يقصده فيمطر فيه •

١٥ ... فهناك تجتمع الشعوب وتلتقى هذب الخدور على غصون البان

١٦ — فاخلع عذارك واغتنم زمن الصبا قبل المشيب فكل نسي غامسي

(١٥) هناك : اشارة الى المكان الذي يدعى المطر ميجييه .
والشعوب : الجماعات والقبائل ، والخدور جمع خدر وهو كل ما واراك
من بيت ونحوه وستر يمد للمرآة في ناحية البيت ، والهدب واحدته هذبة ،
ويجمع على أهذاب وهو : طرف الذوب الذي لم ينسج ، والبان : ضرب من
النسج سبط القوام لين تشبه به قدود الحسان في الطول واللين ،
وغصون البان : كناية عن الحسان اللاتي يتميزن بجمال القدود والقامات
وحسن الطول والقتطيع .

واستطرد الشاعر في الأبيات الثلاثة السابقة الى وصف البسرق
والغمام والمطر ، ثم عاد في هذا البيت الى الغزل والتحدث عن الحسان
واعل الجامع الشعوري بين الأبيات السابقة وما يليها ، ان المطر في نسبه
الجزيرة العربية كان يصيب المكان فيسرع ويزدهر بالكل والنبت فتهدى
اليه الجماعات من الناس وقبائل العرب وتضرب الخدور والخيام على
الحسان المخدرات .

(١٦) العذار : عذار الفرس ونحوه السير الذي يجون على حده من
اللجام ، واخلع فلان عذاره : ظهر استهتاره وقل حياؤه وانباع هواه
وانهمك في الغنى كالدابة تنطلق بلا رسن . واغتنم النسي ، اغتاما :
انتهاز غنمه أو غده غنيمة وهي ما يفوز به المرء ، والصبا : الدهر والحدانة
أو الفتوة والشباب ، والمشيب : الاتيب أو سنه .

ومعنى البيت : يحض الشاعر على انتهاز زمن الصبا والشباب
بالانهمك في اللهو قبل فوات الفرصة باقبال المشيب وذهاب القوة ،
والتذليل الذي في نهاية البيت يضاعف الحض والترغيب .

أضواء على القصيدة

البارودي رائد الشعر الحديث

هذه قصيدة في الغزل يمثل فيها البارودي الشعر القديم أدق تمثيل، فالاتجاه والتفكير والتعبير والخيال في القصيدة وثيق الاتصال ببيئة العربي وحياته وعواطفه وغزله ولهوه وإقامته وارتحاله وأرضه وسماؤه وعيشته في باديته، والناسع ينتقل بقارئه إلى البيئة العربية البحتة ويعرضها عايه مجلوة ويريه الكثير من ظواهرها وخفاياها *

ومما هو معروف أن البارودي تمكن من أن يبعث الشعر العربي القديم من غزوته وأن يرد إليه حياته بعد ما ظل يرسف في قيود الصنعة وأغلال البديع قرونا متلاحقة في عصور الضعف والركاكة والعجمة: وراح يعبر عن عواطفه وعواطف أمته ومجتمعه *

وقد كانت وسيلة البارودي في ذلك عكوفه على دواوين القدماء فقرأ شعر الجاهليين والمخضمين والاسلاميين والعباسيين واستقصى آثارهم واختار لأجودهم وقد بلغ في ذلك حتى قال الأستاذ العقاد عنه: «ولا نعرف أحدا بين أبناء جيل البارودي أو أبناء الجيل الذي تلاه قرأ أكثر مما قرأ من دواوين العرب واستفادت صياغته من هذه القراءة أكثر مما استفاد» *

وإذا كان البارودي قد أعاد إلى الشعر العربي بهاءه ونضرتة معتمدا على بعث القديم ومحاكاته وتمثله ومعارضته، فإن هذا العمل منه يعد تجديدا في الشعر الحديث، لأن الأذواق الأدبية آنذاك لم يكن لها الف بهذه النماذج الشعرية الرفيعة التي طلع بها البارودي على عشاق الشعر

الذين سثموا النماذج الغثة الباردة التي كان ينشئها الشعراء في القرن الماضي •

— كقول عبد الله فكرى المتوفى ١٨٨٩م — فى مليح رآء أول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيفه جئنه فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليلة أبصرنا هـللا جبينه علمنا يقيدا أنها ثرة الشهر
— وقواه فى مدح « اسكار » ملك السويد حين سافر اليها لحضور مؤتمر المستشرقين :

وتلا به اسكار رب سريـه قولا به لذوى النهى اسكار

— وقوله مؤرجا زواج الأمير حسين كامل :

أرخ انحو حسين تزف عين الحـياد

وعلى الرغم من أن عبد الله فكرى كان يمثل فى كثير من شعره تلك النماذج الهابطة المسفة لتي آلت الى شعراء القرن الاضى من عصور التخلف والتقليد والركاكة وضحالة المعنى ، فانه كان هناك من الشعراء من أوغل فى الضعف وتردى فى الخمول والكسل العقلى فى شعره السقيم الذى خلا من روح الشعر ولذة الفن وصدق الشعور •

وتوقفك الأبيات السابقة لعبد الله فكرى على ولعه بتقديد البديع الغث والاستعارة الفجة والجناس 'تردى' والمهارة فى حساب الجميل مع خلوه من المعنى الصادق والاحساس الجميل •

ومرد ذلك الضعف الذى هبط بالشعر الى هذا المستوى هو فتور الشعور القومى واختفاء بواعث الابداع ودواعى الابتكار عند الشعراء •

يقول الدكتور طه حسين . « وقد كان الشعراء والكتاب - أول القرن الماضي وأثناءه - يرون أنهم قد أدوا ما عليهم من حق البيان إذا اداروا هذه الجمل والألفاظ التي كانوا يديرونها على نحو من البديع مألوف ، فيه جناس وطباق وفيه استعارة ومجاز وفيه إشارة ورمز الى ابداء من المعنى تخطر لهم وقل أن تخطر لغيرهم من الناس » .

والبارودي رائد شعرنا الحديث بلا منازع وامام نهضته وباءثته من سبائه العميق الذي ظل يخط فيه قرونا عديدة ، وهو أستاذ مدرسة شعرية لها خصائصها ومميزاتها بين مدارس الشعر العربي الحديث ، وهي مدرسة : البعث والاحياء ، تلك التي أحييت نماذج الشعر القديم في عصوره الزاهرة ، وراح شعراؤها ينسجون شعرهم متوحين هذه النماذج الرفيعة ويصبون في قالبها أغراضهم الجديدة التي هي وليده عصرهم .

وشعراء هذه المدرسة قد حافظوا على النمط المألوف للقصيدة القديمة من حيث : بناؤها الفني وصورها الشعرية وموسيقاها الرثيية وأسلوبها القوى الجزل وعباراتها الرصينة ومعانيها الواضحة المستقيمة ، ومن شعراء هذه المدرسة : البارودي وحافظ وشوقي والجارم ومطران والكافمي والرصافي وغيرهم من شعراء العربية في العصر الحديث .

حول القصيدة

هذه القصيدة عالجت موضوعا واحدا هو تغزل البارودى فى حبيبة لم يفصح عنها ، ولكنه اكتفى بتصويره اثر الهوى فى نفسه وكيف صنع به ما صنع ، والى اى مدى كان فراق حبيبته مؤثرا فيه .

وكيف كان مفتونا بجمال هؤلاء النسوة اللائى رحلن بعيدا عنه وتركته يعانى من لوعة الفراق ، بعد أن تعلق بهن تعلقا شديدا ملك ابسه وعقله ، فراح يسكب الدموع لوعة وشوقا لهن ، ثم استطرد ابى وحسب بارق شخصت له العيون ، وهو يضطرب فى عرض السماء ، ثم حتم قصيدته بالدعود الى اغتنام اللذائذ فى زمن الصبا قبل ان يأتى زمن المشيب .

هذه هى افكار القصيدة فى ايجاز شديد ، وأكد اجزم بأن هذه القصيدة من الشعر الذى قاله البارودى فى مدالغ حياته السعيرة لعدة أسباب منها :

— ان هذه القصيدة لا تنم عن تجربة شعورية ناضجة اخترت فى أعماق الشاعر على أثر معاشته لها معايشة تنم عن حب حقيقى صادق أو انفعال وجدانى حقيقى ، بمعنى أنك اذا ننت عن حبيبة حقيقية هام بها البارودى واهترت لها أحاسيسه فى تنايا هذه القصيدة أم تخلفر بها يشفى غلتك من وراء بحثك وتنقيك .

— ان عنصر التقليد والمحاكاة واضح فى القصيدة من اولها الى نهايتها ، فاقدر عاش الشاعر فيها حياة غير حياته وعمره غير عمره ، ونقل انينا مشاهد بدوية بحتة — كالأطعان — والمان — ولحظات

النساذن الفتان — وعلى المرحائل نسوة عربية — حبائل الشيطان — ان
الأسود فرائس الغزلان — وأبرق الحنان — ولقد حننت لبارق ••••
الخ — وعرض الغمام — لهب تردد فى سماء دخان — هذب الخدور على
غصون البان — فاخلع عذارك ••• الخ •

ويدل هذا على مدى تعلق البارودى بمحاكاة ما قرأه من شعر
القدامى وتمثله وهضمه الى حد ذابت معه فيه شخصيته الأدبية ، وقد
كان هذا بالطبع فى صدر حياته الشعرية •

ومن نماذج غير هذه القصيدة قوله :

ألا حى من أسماء رسم المنازل	وان هى لم ترجع بيانا لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت	عليها أهاضيب الغيوم الخوائل
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم	أراني بها ما كان بالأمس شاعلى
غدت وهى مرعى للظباء وطالما	غنت وهى مأوى للحسان العقائل
فللعين منها بعد تزيال أهلها	معارف أطلال كوحى الرسائل

•• الخ

ولكن البارودى لم يقف فى شعره عند حد المحاكاة والمعارضة
والتقليد ، ولكنه انطلق يعبر فيه عن ذاته بما انطوت عليه من متاعر ،
وعن عصره وما شابه من ظروف وأحداث •

— فمن قصيدة له يرثى فيها زوجته وقد ماتت فى مصر وهو لا يزال
فى منفاه :

يادهر فيم فجعتنى بحليسة	كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضاى لبعدها	أفلا رحمت من الاسى أولادى ؟

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعى التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تنثر جوائشسى أسفا لبعذك أو يلين مسادى
والهى عليك مصاحب لسيرتسى والدمع فيك ملازم اوسادى
فاذا انتبهت فانت اول ذكرتى واذا أويت فانت آخر زادى

— ومن شعره فى اشعال الثورة العربية نقوله :

فياقوم هبوا انما العمر فرصة وفى الدهر طرق جمة ومداسع
احسبوا على مس الهوان وانتم عديد الحمى؟انى الى الله راجع
وكيف ترون الذل دار اقامه وذلك فضل الله فى الارض واسع
أرى أروسا قد أيدعت احسادها فأين ولا أين السيوف القواطع
فكونوا حصيدا خامدين أو افزعوا الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

— ومن مظاهر التقليد فى القصيدة كذلك صورها الشعرية وطريقة
الشاعر فى التعبير عن معانيه كقوله فى البيت الثانى :

أخفيت عنه سريرتى فوشى بها دمع أباح له حمى كتمانسى

فهذا مأخوذ من قول الشاعر قبل البارودى :

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانسى
نم دمعى فليس يكتم شبيئا ورأيت اللسان ذا كتمانسى

فالمعنى الذى تناواه البارودى وطريقة تصويره والتعبير عنه
مأخوذ من هذين البيتين اللذين فصلا ما أجمله البارودى ♦

وفى القصيدة كثير من الصور البدوية التى تلاحظ مثلها فى ذواله
فى البيت السابع :

هيهات يرجع بعدما علقت به لحظات ذاك الشادن الفتان
حيث استعار الشادن (الطبيب) للمرأة الحسناء التى تيمته بنظراتها
الفاتنة الساحرة .

— ولما كانت القصيدة القديمة لا تنظم موضوعا واحدا فى الأعم
الأغلب ، وانما كان يزف فيها الشاعر ما اختلج فى أعماقه وما وده
عليه حسه ، فان البارودى قد سمح لنفسه أن ينتقل من الغزل الذى
عالجه فى احد عشر بيتا الى وصف بارق اضطرب فى عرض الغمام
وسخفت له العيون ، ثم أنهى قصيدته بيت أغرى فيه باغتنام زمن
الحبا قبل المشيب . ومعنى هذا أن الوحدة فى القصيدة — وحدة
مشاعر وأحاسيس — ويصح أن نطلق عليها هنا : وحدة موضوعية ، لأن
الشاعر تناول فيها موضوعا واحدا هو : الغزل اذا استثنينا الأبيات المنوه
بها آنفا .

— أما أسلوب القصيدة فيتسم بجزالة الألفاظ مع رفقتها مواءمة
لعاطفة الغزل وما تقتضيه من صياغة ، كما يتسم بدقة التراكيب ومساحتها
وخلوها من الغريب والمهجور من الألفاظ ، والقصيدة تمتلئ تلك الوثبة
الرائعة التى ونبها البارودى بالعبارة الشعرية حيث انتقل بها من الركافة
والضعف الى المتانة والصحة ، وأنقذ بها الشعر من الأساليب الغثية
السمجة الى أساليب عربى أصيل سمح .

قصيدة البارودى فى حرب البلقان (*)

قالها فى حرب البلقان بين الروس والدولة العثمانية :

- ١ — هو البين حتى لا سلام ولا رد ولا نظرة يقضى بها حقه الوجد
- ٢ — لقد نعب (الواپور) بالبين بينهم فساروا ولا زمواجملا ولا شدوا
- ٣ — سرى بهم سير الغمام كأنما له فى تنائى كل ذى هلة قصد
- ٤ — فلا عين الا وهى عين من البكا ولا خد الا للدموع به خسد

(*) وقعت هذه الحرب — ١٨٧٨ م — حينما أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وقد أرسل الخديوى اسماعيل جيشا يعاون متبوعه ، وسافر البارودى مع هذا الجيش ، واشترك فى الحرب ، وكوفىء لمواقفه فيها بانعام الخلافة عليه برتبة — أمير اللواء — وبنيشان الشرف (الميدالية) وبالوسام المجيدى من الدرجة الثالثة .

وفىها قال هذه القصيدة التى بثها خواطره وذكرياته ، وبعث بها الى الأستاذ الشيخ — حسين المرصفى — الذى يعد البارودى واحدا من تلاميذه ، والمتوفى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م .

والقصيدة فى الديوان ج ١ د ١٤٧ وما بعدها .

(١) البين — الفراق ، والوجد : الحب .

(٢) نعب صفر وصوت ، زم البعير : شد عليه الزمام وهو الحبل الذى يقاد به وشد الرجل ونحوه اذا وضعه على ظهر البعير وربطه وأوثقه .

(٤) عين الأولى — حاسة الرؤية ، وعين الثانية : ينبوع الماء ، وللدموع به خد ، طريق أو تأثير .

- (١١) دعتهم اليهـــــــــــــــــا نفحة عنبرية
وبالنفحة الحســـــــــــــــــناء قد يعرف الورد
- (١٢) وقفنا فلما ، فردت بالسن صوامت الا أنها الســـــــــــــــــن لد
- (١٣) غم من مثلة عبري ، ومن لفح زفـــــــــــــــــرة
لها شرر بين الحشـــــــــــــــــا ما له زبـــــــــــــــــد
- (١٤) فيا قلب حـــــــــــــــــبرا ان الـــــــــــــــــم بك النــــــــــــــــوى
فكل فــــــــــــــــراق أو تلاق له حــــــــــــــــد
- (١٥) قد يشعب الالفان أدناهما
الــــــــــــــــوى ويلتئم الضدان أقصاهما الحــــــــــــــــد
- (١٦) على هذه تجرى الليالي بحكمها
فأونة قــــــــــــــــرب وأونة بــــــــــــــــد
- (١٧) وما كنت لولا الحب أخضــــــــــــــــع للفتى
تســــــــــــــــى ولكن الفتى للهــــــــــــــــوى عــــــــــــــــد

(١٢) لد : جمع الد صفة من الدد وهو شدة الخصومة . والمراد
أن رسومها كانت واضحة الدلالة ، كأنها تنطق بما مضى من أحوال
أهلها بفصاحة ولسن .

(١٣) المقلة شحمة العين التي تجمع سوادها وبياضها ، وعبري :
يجري دمعها حزنا ، واللفح : مصدر لفحته النار والسموم بحرهما أي :
أحرقته ، والزفرة : اسم الزفير وهو اخراج النفس طويلا ممدودا ،
والشرر : ما يتطاير من النار وأحدثه شررة والحشا : ما اشتملت عليه
الاضلوع أو ما حواه البطن ، والزند : العود الذي تقدح به النار .

(١٨) فعودى صلب لا يلين لغامز
وقلبي سيف لا يفلى له حـ

(١٩) إباء كما شاء الفخار وحبوة
يذل لها في خيسه الأسد الورد

(٢٠) وأنا أناس ليس فينا معابة
سوى أن وادينا بحكم الهوى نجد

(٢١) تلين - وان كنا أشداء - للهوى
ونغضب في شروى نقير فنتد

(٢٢) وحسبك منا تسمية عربية
هي الخمر ما لم يأت من دونها حرد

-
- (١٨) هو صلب العود : أى قوى الشكيمة ماضى العزم ، وغامز :
من غمز الرجل العود ونحوه إذا جسسه ليعرف لينه من صلابته ، ومعنى
لا يلين لغامز أنه ليس فيه ضعف ولا عيب ويفل : يثلم ، ووجد السيف :
شفيره ، وطرهه وحرفه القاطع ، والبيت كناية عن قوته وشجاعته .
(١٩) حيس الأسد : موضعه وأصله الشجر المتف ، الأسد الورد :
ما كان وردى اللون بين الكميت والأشقر ، أو هو الجرى .
(٢٠) نجد فى وسط جزيرة العرب تقريبا ، وهو الجزء المهدود بين
اليمن وتهامة والحجاز والشام والعراق ، وهو يشير بالتشطر النانى من
هذا البيت الى أن حبه عفيف ، فقد انتهر أهل نجد بالحب العذرى
العفيف ، وفى البيت تأكيد المدح بما يشبه الذم .
(٢١) أشداء : جمع شديد وهو الشجاع الصلب والشروى :
المثل والفقر : النكته فى خهر النواذ ، وشروى نقيرة مثل يضرب للقلة .
(٢٢) الحرد : الغضب مصدر حرد ، يشبه طبائع قومه بالخمر فى
السلاسة والسهولة والرفة والصفاء ، ويقول : أنها طبائع عربية كريمة
تلين إذا رخصيت وتشتد إذا غضبت .

- (٢٣) وبى ظمناً لم يبلغ الماء ريه
وفى النفس أهر ليس يدركه الجهل
- (٢٤) أود وما ود أمرىء نافعاً له
وان كان ذا عقل اذا لم يكن جيد
- (٢٥) وما بى من فقر لدنيا وانما
طلاب العلا مجد ، وان كان لى مجد
- (٢٦) وكم من يد لله عندي ونعمة
يعض عليها كفه الحاسد الوغد
- (٢٧) أنا المرء لا يطغيه عز لثروة
أصاب ا ولا يلوى بأخلاقه الكد
- (٢٨) أصد عن الوفور يدركه الخنا
وأقنع بالميسور يعقبه الحمد
- (٢٩) ومن كان ذا نفس كنفسى تصدعت
لعزته الدنيا ، وذلت له الأسد
- (٣٠) ومن شيمى حب الوفاء سجية
وما خير قلب لا يبدوم له عهد
- (٣١) وليكن اخواننا بمصر ورفقة
نسبونا فلا عهد لديهم ولا وعد

-
- (٢٣) ريه : مصدر روى من الماء (من باب رضى) (بكسر
الراء وفتحها) • ومعنى البيت أن همة فى الحياة أبعد من سعيه ،
وأن أمله أرفع من عمله •
- (٢٤) ود : مصدر وهو مثلك الواو ، والجيد بالفتح : الحظ
والحظوة والرزق •
- (٢٦) الوغد : الدنى •

- (٣٢) أحـن لهم شـوقا على أن دونفـبا
مهامـبه تـعـيـبا دون أقربـها الربـد
- (٣٣) فـياساكنى الفـسـطاط ا ما بال كـتبـنا
ثوت عـنـدكم شـهرا ولىس لها رد ا
- (٣٤) أفى الحـسـبـق أنا ذاكرـون لعـهـدكم
وأنتـم عـلـينا لىس يعصـفكم ود ؟
- (٣٥) فلا ضـمـير ان لله يعقب عـودـة
يـهـون لها بعـد المواصـلة الصـد
- (٣٦) جـزى الله خـيرا من جزانى بمثـله
على شـقة غـزر الحـياة يـها ثمـد
- (٣٧) أبـيت لذكـراكم بـها متـمـلـلا
كأنى سـلـيم أو مـثـت نحـوه الـورد
- (٣٨) فلا تحـسـبـونى غافـلا عن ودادكم
رويدا ، فما فى مـهـجـتى حـجـر صـاد

-
- (٣٢) ارـيد : النـعام يقال ظـليم أرـيد ، ونـعامـة رـبـداء اذا كان لونـها
كلون الرماد •
- (٣٦) الشـقة : البـعد والسـفر البـعيد والمـشـقة ، والثـمد : المـاء
القليل أو ما يذهب فى الصيف ويظهر فى الشـتاء ، والغـزر : مـصـدر غـزر
الماء ونحوه أى كثر فهو غزير •
- (٣٧) بها أى بالشـقة المذكورة فى البيت السابق ، متـمـلـلا :
أى متـقـلبـا ضـجـرا بسـبـب الـوجد والغـم ، والسـلـيم : من لدغته الحية ،
والورد : من أسماء الحمى •

- (٣٩) هو الحب لا يثنيه نأى وربما
تأرج من من الخرام له النـد
(٤٠) مات بى عنكم عربة وتجهت
بوجهى أيام خلائقها نكـد
(٤١) أدور بعينى لا أرى غير أمة
من الروس بالبلقان يخطئها العـد
(٤٢) جوات على هام الجبال لغارة
يطير بها ضوء الصباح اذا يـدو
(٤٣) اذا نحن سرفا صرح الشهر باسمه
وصاح التبا بالموت واستقتل الجند

(٣٩) الند : عود طيب الرائحة يتبخر به ، أو هو نوع من الطيب
أو العنبر ، والمعنى : ان الحب لا يضعفه البعد المؤلم المحرق . بل يزيده
ويهيجه ، كالد نتوهج ريحه اذا مسته النار . وفى البيت تشبيه
ذمنى لا يخفى .

(٤٠) خلائقها : المراد طبائعها وهو استعمال مجازى . ونكد :
جمع نكداء صفة من النكد ومعناها : متشومة عسرة .

(٤٢) جوات : صفة لأمة فى البيت السابق وجمع النصحيح
جاثيات ، ومفرده : جاثيه اسم شاعل من (جثا) اذا جلس على ركبتيه
وهام الجبال : رؤوسها .

ومعنى الشطر الثانى من البيت : أنه اذا بدا الصبح انتشرت
الغارة ، حتى كأن ضوء الصباح هو الذى يدفعها الى سرعة الانتشار .

- (٤٤) فأنت ترى بين الفريقين كبة
يحدث فيها نفسه البطل الجعد
(٤٥) على الأرض منها بالدماء جداول
وفوق سرة النجم من نفعها لبند
(٤٦) اذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلثهم
بحسورا توالى بينها الجزر والمد
(٤٧) شلهم شل العطاش ونت بها
مراغمة السقيا ، وما طلها الورد
(٤٨) فهم بين مقتول طريح وهارب
طليح ، ومأسور يجاذبه القعد
-

- (٤٤) الكبة : الدفة فى القتال والحمة فى الحرب ، والجعد :
الكريم الجواد ، والمعنى : فأنت ترى بين الفريقين المتحاربين حمة
سديدة يحدث فيها الشجاع نفسه بالفرار •
(٤٥) جداول جمع جدول : النهر الصغير ، وسرة النجم أعلاه ،
والنقع : الغبار •
(٤٦) الجزر : انخفاض الماء ورجوعه الى خلفه ، والمد : ضد
الجزر وهو ارتفاع الماء وكثرته واقباله نحو الشاطئ •
(٤٧) شل : نطرد ونسوق ، ونت : ضعفت وفترت ، المراغمة :
الهجران والتباعد والسقيا : السقى ، الورد : النصيب من الماء أو
الانصراف عليه ، والمعنى : أن أعداءنا يهجمون علينا بعنف وسدة ، كما
تهجم العطاش على الماء بعد طول الظمأ ، فنرد هجمتهم وندفع
مصولتهم •
(٤٨) طليح : متعب ، القد : سيريقد أى يقطع ، ويشق من جلد
غير مدبوغ ويقيد به الأسير ونحوه •

(٤٩) نروح الى الشورى اذا أقبل الدجى
ونغدو عليهم بالنايا اذا نغدو

(٥٠) ونقع كالج البحر خضت غماره
ولا معقل الا المناصل والجرد

(٥١) صبرت له والموت يحمر تارة
وينغل طورا فى العجاج فيسود

(٥٢) فما كنت الا الليث أنهضه الطوى
وما كنت الا السيف فارقه الغمد

(٥٣) صؤول وللأبطال همس من الونى
ضروب وقلب القرن فى صدره يعدو

(٥٤) فما مهجة الا ورمحى ضميرها
ولا لبة الا وسيفى لها عقد

(٥٥) وما كل ساع بالغ سؤل نفسه
ولا كل طلاب يصاحبه الرشد

—————

(٥١) ينغل : يدخل ، والعجاج : الغبار والدخان •

(٥٣) صؤول : صفة مبالغة من (صؤل) حسالة أى : وثب مقاتلا •
والقرن : كفؤك فى المشجاعة ، ويعدو : يجرى ، وعدو القلب فى الصدر
كناية عن شدة الاضطراب والخوف •

(٥٤) البيت كناية عن كثرة تقتيله لأعدائه فى هذه الحرب •
وفيه تشبيهان بليغان كما لا يخفى •

(٥٦) اذا القلب لم ينصر ك فى كل موطن
فما السيف الا آلة حملها اد

(٥٧) اذا كان عقبى كل شىء وان زكا
فناء ، فهكروه الفناء هو الخلد

(٥٨) وتخاييد ذكر المرء بعد وفاته
حياة له ، لا موت يلحقها بعد

(٥٩) ففيم يخاف المرء سورة يومه
وفى غده ما ليس من وقعه به بد

(٦٠) ليضن بى الحساد غيظا م فاني
لأنائهم رغم وأكبادهم وقد

(٦١) أنا القائل الممود من غير سببة
ومن شبيمة الفضل العداوة والصد

(٥٦) الأد : الأمر الفظيع والداهية والفكر •

(٥٧) يقول : اذا كان الفناء نهاية كل شىء وان زاد ونما فان
هذا الفناء المكروه هو الدوام والبقاء •

(٦٠) ضنى (كرضى) ضنى : مرض مرضا يخاطرا كلما ظن
برؤه نكس ، وآناف جمع أنف ورغم : قسر وذل وقهر وأصله من أرغم
الله تعالى أنفه أى : ألصقة بالرغام وهو التراب ، والوقد : النار
أو اتقادها •

(٦١) الند : مصدر ضده فى الخصومة بمعنى غلبه ، ومعنى
البيت : أن الأفاضل معرضون دائما للحسد والخصومة والعداوة
ممن حولهم •

(٦٢) فقد يحسد المرء ابنه وهو نفسه
ورب سوار ضاق عن حمله العضد

(٦٣) فلا زلت محسودا على المجد والعلو
فليس بمحسود فقي وله نبد

(٦٢) السوار من الحلى : ما تزين به المرأة معصمها ، والعضد
ما بين المرفق إلى الكتف ، وفي البيت تشبيه ضمنى • وموضع السوار
في العضد معروف •

حول القصيدة

تحليل ونقد :

١ - الأفكار : هذه القصيدة من شعر الوطنية عند البارودى ، وهو أحد الأغراض الجديدة التى أكثر من النظم فيها والترجمة عنها ، وانتهى تعد وليدة العصر وصدى البيئة وانعكاسا للشعور الوطنى الذى دب فى نفوس المصريين ، منذ أن فجرته عوامل الميئذنة وأسباب الرعى ، ومنهم أو قل : على رأسهم شاعرنا هذا .

والقصيدة تجربة صادقة عاشت فى وجدان الشاعر وانفعلت بمعانيها أحاسيسه ، فترجمها فى بيان مؤثر ، وتصوير معبر عن صدى الوجدان وكامن التسعور .

وهى وإن كانت جديدة فى موضوعها أو فى بعض أغراضه ، بيد أن شاعرنا قد سار فيها على منهج القدامى فى البناء الفنى المألوف ، الذى غالبا ما يقوم على تعدد الأغراض وتناثر الأفكار فى القصيدة الواحدة - ضمن ما يقوم عليه من أسلوب - وضمنها هذه الأفكار :

(أ) تصوير المعاناة النفسية التى عاناها الشاعر وهو فى غربته بعيدا عن وطنه وأحبابه بعد أن عاودته ذكرى الفراق الكئيب ، الذى تم فى سرعة خاطئة ، وانتزع الأوبة من ذويهم دون تمهيد يهيب النفس لتقبل الرحيل ، أو يعينها على التجلد والتصبر أثر الوداع الخاطف الذى أسلم الشاعر الى فراق ثقيل ، غلا سلام من المرتحلين ولا رد من المودعين ، وانما نظرة عابرة لا تطفئ لهيب النوى ، ولا تبل حرقه الشوق ، وما هو الا أن صوت الوابور معلن الفراق بل ومشجعا عليه دون مهلة تعين على حزم المتاع وشد حقائق المسافرين ، وكأنه هو الآخر صاحب عرض ملحاح لا يعنيه سوى بلوغ أربه وإدراك حاجته ، التى لا تتم الا بالوصول الى أرض نائية اعتصرت فيها الأفتدة ، وسالت فيها العيون .

ثم أعقب ذلك بالتهيرية عن نفسه والترويح عنها وذلك بسماع ذكرى الأحبة الذين تركهم في وطنه ، لعله يجد فيها بعض السلوى والعوض ، إذ كان الحديث عن موطن الذكريات يروى لظى البعاد ويطفىء نار المشوق التي تزيد من اشتعالها الالم النوى والفراق ، حتى إذا حدثه المتحدث عن أخبار رفاقه وخلانه ، خمدت هذه النيران في جوانحه وانطفأ لهيب جذوتها ، وشعر بشيء من لذة الوصل ونشوة التلاقى .

ولم يكن للبارودي وهو المفتون بطريقة القدامى والذي تتلمذ على شعرهم أن يمر في قصيدته دون الوقوف على ديار الأحبة ومناجاتها والبكاء والاستبكاء عليها — كما كان يفعل كبار الفحول منهم ، وهو الذي عارضهم وحاثهم ، وتمثل طرائقهم في النظم ومذهبهم في البناء ، وكذلك قد نمل فذكر المعاني التي خلعت من أهلها برحيلهم عنها مصورا في هذا المقطع من القصيدة ، كيف دفعه وفاؤه وشوقه — مع رفاق له — الى الوقوف بها والتسليم عليها ، لعل في ذلك ما يبيل لهيب شوقه ويطفىء ضرام ظمئه .

ولقد ترجم البارودي في ذلك عن عاطفة مشتاقة حارة سورتها الأبيات — من الأول حتى الثالث عشر — وذاك في عبارات موحية بآثار الغوى وآلام الفراق ، وشدة اللوعة وفرط البكاء ، والأنين ، ولهفة الغريب وحنينه الى وطنه وساكنيه ، وتحسره على آثار الراحلين ، وذكرى المقيمين ، وما الى ذلك مما ينبىء عن عاطفة قومية صادقة وشعور وطنى نبيل .

وبعد أن أغاض في ذلك نراه قد هدأ في أفكاره ، وتريث في تصوير عاطفته التي هدأت حدتها ، وانصرف الى قلبه محاطبا اياه ، بالتصبر على آثار النوى ، والتجالد على مقاومة الخطوب ، فقد يلتئم الصدع ويجمع الشمل بعد يأس طويل مصداقا لقول الآخر :
وقد يجمع الله الشستيتين بعدما يخزان كل الخزن أن لا تلاقيا

وتلك حكمة الليالى وسنة الحياة التى تقرب تارة وتبعد أخرى
وقد تقرب ولا تبعد أو تبعد ولا تقرب ، وعلى المرء أن يقنع بقسمته ،
وأن يذعن لقضائه ، اذ ليس له من سبيل فى رده ، صور البارودى هذه
الفكرة فى قوله :

فيا قلب صبرا ان ألم بك النوى فكل فراق أو تلاق له حد
فقد يشعب الألفان أدناهما الهوى ويلتئم الاضدان أقصاهما الحقد
على هذه تجرى الليالى بحكمها فأونة قرب وأونة بعد

ولما كان البارودى نزاعا بطبعه الى الفروسية وتعشق البطولة ،
الذى ترفع صاحبها على مستوى الخطوب والأحداث ، طموحا الى المجد ،
نزاعا الى تحقيقه ، مهما كان البذل والعطاء ، وهو القائل :

ومن تكن العليا همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محب

والقائل كذلك يصور ايمانه بالقدر ورضاه بشيخ الدهر :

لا يرى عابا على شيخ الدهر سر ولا عابثا ولا مزاحا

لما كان غذا كذلك ، فلقد جنح الى تبرير عاطفته الحارة المتشوقة
التي صورتها أبياته فى الحنين الى الوطن والتشوق الى الرفاق .

ولعله قد رأى أن الافاضة فى مثل هذا التصوير العاطفى يعد
ضعفا أمام مجريات الأحداث التى تسمو همته عليها ، وذلك عيب لا يليق
بخلق من كان على شاكلته ، ولكن ما حيلته ، وقد أفعم قلبه بالحب
وفاضت به جوانحه ، ولا سبيل له فى التغلب على سلطانه يقول :

وما كنت لولا احب أخضع للتي تنبىء ولكن الفتى للهوى عبد

اذن فعاطفة حب الوطن وآله هى التى جعلته يغلو فى تصوير

الشوق ويعجز عن مقاومة الصراع النفسى الداخلى ، الذى سيدلر على
ويجد الله بها ينطق بها بيته السابق .

(ب) ترفق البارودى فى الانتقال من هذا الغرض وما يحيط به
فيه من جو نفسى كثيب ، الى الفخر بصفاته التى ميزته والتى يعجز
أمامها الشجعان مهما كانت قوتهم — وان كانت هذه الصفات ضعيفة
فأنره أمام الحب العميق ، الذى شده شدا الى وطنه وخلائه ، وجعله
يحيد عن فلسفته فى حياته — وهذه المعانى والقيم التى نماخر بها
تمتاع معينها من صفات القدامى وتجرى على سنانهم ، فهو شجاع
فائك ، رابط الجأش ، قوى العزيمة ، نافذ الضربة ، قلبه الشجاع لا يعرف
خورا ولا يدنو منه ضعف ، تخشاه الاساد فى آدامها والوحوش فى
انجامها ، وهو صاحب حب ظاهر عفيف ، وفى لأصدفاته وحسبه ،
يلين فى موضع اللين ، ويقوى فى موقف الشدة . عاقل رزين متزن ،
طموح الى المجد ، مجد فى طلب العلاء ، حباه الله بنعم لا بعد ،
كانت مزار حسد حساده وضيق منافسيه ، وهو قنوع زاهد فى حطام
الدنيا ، لا يفتته المال الوفير ولا يطغيه تسان الأدنياء من طلاب الشهرة
وعبيد المال .

غذا أصابه المال فليس بطاغ ، واذا أخطاه فليس بنادم ،
يعف عن المال الوفير اذا كانت سبيله رخيصة ويقنع بالقليل الذى
تنسم له متى كانت سبيله مشروعة ، كما أنه أبى النفس ، عزيز الجانب ،
تذل الدنيا لعزة نفسه ، شيمته الوفاء والبقاء على العهد .

وقد تناول هذه الصفات فى أبياته من : الثامن عشر الى الثلاثين .

(ج) عاود البارودى حديثه عن عاطفة الشوق وتصويرها مرة
ثانية ، بعد أن أفاض فى الفخر بشمائله على الطراز السابق .

وقد كان فطنا فى الانتقال من غرض الى غرض ، رفيقا فى هذا الانتقال من جو الفخر والحماسة وما يتبعه من قوة العاطفة ، التى يلزمها قوة اللفظ وفخامة العبارة — الى جو العتاب الرقيق والشوق اللهيف ، والحنين الدافئ ، وما يتطلبه ذلك من عذوبة اللفظ ورقته ، وجمال الصورة وحسنها ، وهذا ما يطلق عليه النقاد — حسن التخلص والخروج — وعلى قدر حذق الشاعر له وبراعته فيه — بحيث يخفى ديبية ويستتر نقلته — تكون درجة اجادته ، لأن ذلك يعمل على ترابط الأفكار وانسجامها ، بين أبيات القصيدة الواحدة .

وفى الأبيات من الحادى والثلاثين الى الأربعين ، يصور الشاعر نفسه التواقية الى الوطن ومن فيه ، ويبدو أن هذه النفس لم تطب لهذا المقام البعيد ، لا لضعف منها أو جبن فيها ، وانما كان حب الوطن أقوى من مقاومة البعاد ، ومن ثم نرى عاطفة الشوق — وهى عاطفة وطنية قوية — تله لقا كثيفا ، وهى فى هذه المرة ، ابقاء على العهد ووفاء بالود ، وعلى الرغم من بعد الشقة وطول المسافة بينه وبين رفاقه فى مصر ، فهو مبق على العهد ، محافظ على أواصر الود ، لا يفتأ يفكر فيهم ويراسلهم ويحن اليهم حنين الصب المستهام ، يقتشوق الى كتبهم ورسائلهم علها تقلل من لظى الوجد وحرقة النوى وآلام الفراق .

فهو يعيش بينهم وان بعد عنهم ، يشاركهم عواطفهم ويبادلهم مآسيهم وان فصلت بينه وبينهم مسافة شاسعة وحل عنهم فى مكان سحيق .

وهو فى عتابه لهم رفيق رقيق يسائلهم فى تطف وتحنان : هل لا يزالون على العهد مبقيين ؟ والذكرى حافظين ؟ أو أن طول البعاد أنساهم وبعد الديار شغلهم فضريوا عنه صفحا ، ونسخوه من قائمة الصداقة وسجل الأصدقاء فى عمر انعدم فيه الوفاء أو كاد ؟ ! .

وقد ألح البارودى على توكيد هذا المعنى ، مما يدل على معاناته النفسية من تلك الخلطة الذميمة التى تنفشت فى عهده ، تلك التى تنبذ الوفاء ، وتطرح العهد وتفترط فى الميثاق الذى ينبغى أن يكون قائما بين الصديقين أو الأصدقاء •

وللبارودى شعر كثير كان أكثر صراحة فى الترجمة عن هذه النزعة من نزعات النفس الوفية ، التى تمقت النفاق وتتأفف من المنافقين غير الأوفياء ، منه قوله من قصيدة طويلة :

لاى خليل فى الزمان أرافق وأكثر من لاقيت خب منافق
بلوت بنى الدنيا ، فلم أر صادقا
فأين لعمري الأكرمون الأصادق ؟ !

ثم يمضى الشاعر فى الحديث عن ذكرى رفاقه وأيامه بينهم ، مؤكدا على أن ذلك يلزمه ليله ، فتترق جفونه وتسلب من مقلتيه اغفاء الراحة ، التى هو فى مسيس الحاجة إليها ، بعد نهار ثقيل متعب ، مصورا الباعث على ذلك كله ، وهو الحب الدافق الفياض ، الذى ملأ قلبه الحنون ، الممتليء بمعانى الوفاء ، الفياض بمشاعر الولاء وعواطف الانسانية •

(د) — انتقل البارودى بعد الترجمة عن معاناته النفسية — التى ذاعف منها ذكرى وطنه وحنينه الى أقرانه ولدائه — الى وصف حياته العنيفة ، التى يحياها فى ظل معترك صاخب وحرب خروس بين جيوش المثمانيين الذى سبق البارودى وصحبه للانضواء تحت لوائه ، وبين جيوش الروس كثيرة العدد قوية المعتاد •

ومع أن البارودى قد تعشق الغروسية منذ صباه ، وكان ولعا بخوض المعارك • أو مشاهدة وقائعها وقراءة أوصافها منذ حداشته ، نراه برما بهذه الحرب ضائق الصدر من ويلاتها فى هذا الوضع بالذات •

وليس ذاك عن جبن منه وقصور فيه — وهو رب السيف والآن لم —
الذى انخرط فى سلك الجندية منذ مطلع شبابه ، وآثرها عن غيرها ،
كما هو معلوم من ترجمة حياته ، كما أن شعره غاص بملاحم البطولة
وأوصافها وتصوير مقومات الفارس الشجاع ، كقوله فى موطن الفخر
بنفسه والاشادة بشجاعته :

لهج بالحروب لا يآلف الخف ض ولا يصحب الفتاة الرداحا
مسعر للوغى ، أخو غدوات تجعل الارض مأتما وصياحا

ولكن فيما يبدو أن البارودى كان يشعر من أعماقه ، أن هذه
الحرب لا ناقة له فيها ولا جمل — وأنه أولى به أن يدخر جهده حتى
يدسه موضعه الصحيح فى حرب تعود فائدتها على وطنه وقومه حتى
يتحرر من تبعيته الى تركيا ، وحتى يتخلص من سلاطينه الذين امتهنوا
مترامته وسلبوه حريته ، ولذا نراه كان يحرص على الثورة فى شعره
للخلاص من هؤلاء واولئك ، كما أنه كان زعيما من زعماء الثورة العربية
تلك التى ترجمت المشاعر القومية المتأججة فى نفوس المواطنين الى
واقع على ملموس ، وكان من نتيجتها أن نفى البارودى ورفاق له من
زعماء الثورة الى خارج وطنهم *

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، أن دوران الحرب فى ذاك
المكان النائى السحيق ، وما ترتب عليه من تغريبه وإبعاده عن وطنه
الحبيب وآله وصحبه كان مبعث القلق النفسى ، وذلك الذيق الذى
امتألت به دأته كما يترجم عنها هذا (البيت ٤٠) *

نأت بى عنكم غربة وتجهمت بوجهى أيام خلائقها بكسد

وقد كان البارودى صادقا فى تصوير معانى هذا الغرض — وإن
جنح به خيال الشاعر فى تصوير بعضها ، وقاده الى شىء من الغلو غير
قليل — فذكر ضخامة جيش الروس وقوة عتاده وشدة همنته فى التحفز

ابى الحرب والتحمس الى النزال ، مما يكون القتال معه شرسا شديدا ،
ويكون انتزاع النصر من العدو دليلا على بسالة جيئسه وقوة شكيمته •

لما صور تحفز جيش العثمانيين لللاقاة عدوه ، وبين كيف استقتل
الجنود واستماتت الجموع فى ميدان الوغى ، ثم وصف الجمع الحاشد
من الافريقين وهو يتداعى متواليا فى جماعات ، تحمل حملا سريعا
متلاحقا ، يحاف من هوله الشجاع ويفرق منه قلب الصنديد ، بل وربما
حدثته نفسه بالفرار من ساحة الحرب والهروب من ميدان القتال •

وفى حديثه عن أرض المعركة وميدان الاقتتال أشفى على الغاية ،
وبين كيف خضبت هذه الأرض بالدماء التى تدفقت فى غزاره كأنها
الجدول المنساب ، من نزيف جنث القتلى وكلوم الجرحى وأسلاء المصابين
ثم صور كيف كانت هذه المعركة فى تلاحم وتراجع مستمرين ، يتلاحم
الجنود حتى يكل السلاح فى أيديهم ، فيتراجعون لجمع النمل وتنظيم
المصفوف وتعديل المخطط وتغيير الأسلحة ، ثم ينفذون مرة أخرى ،
وهكذا — دواليك — •

كما صور ما أسفرت عنه المعركة فى نهاية كل يوم من أيامها ،
وكيف أصاب جند الروس ما أصابهم من قتل وآلر واذلال وتسريرد •

وهم على هذه الحال نهارهم ، حتى اذا جن الليل ، اصرفوا
للنشاور فيما بينهم تأهبا ليوم لاحق يكون فيه القتال أكثر صراوة ،
ولهيبة المعركة أقوى استعارا •

هذا ما قام به الجيش العثمانى فى هذه الحرب كما صوره
البارودى ، الذى لم ينس نفسه وما قامت به من دور بطولى فى خضم
معركة البلقان ، نال من أجله أوسمة الدولة ونياشينها ، فذكر أنه خاض
المعركة ، وعدته فيها جواد صلب وسيف باتر ، يؤازرهما صبر مستميت

وهمة فارس شجاع ، صمم على انتزاع النصر مهما بلغت ضراوة المعركة ،
ومهما اشتد تداعى عباؤها أو حمى وطيش ناريها ونلبدت سماؤها بالعيوم .
وفى هذا الغرض صور الشاعر نفسه بأنه ليث جسر يفنحم ،
وسيف صليت يحد ، وأنه يحمل عزيمة شجاع فائق ، وقلب همام حؤول ،
بينما الأبطال من دونه يتهامسون حورا ، وربما حدثتهم أنفسهم بالفرار .
وقد غالى فى ذلك غلوا ماحوظا ندرته فى قوله فى البيت *
فما مهجة الا ورمحى . ميرها ولا لبة الا وسيفى لها عـ

وقد سلك فى ذلك مسلك القدامى ممن قلدهم فى كثير من صورهم
ومعانيهم — كعنترة مثلا الذى يقول — غالبا فى تصوير شجاعته :
وأنا المتية حين تشتجر القنا والطعن منى سابق الآجال
وتد تناول هذه المعانى فى الأبيات من الحادى والأربعين الى
الرابع والخمسين .

أما باقى أبيات القصيدة انتهى نعمة لهذا الغرض ، ساق فيها بعض
النصائح والدعوى ، التى استمدتها من حياته وخبرانه ، كما ترجم فى
بعضها من حقيقته من حقد الحياة دين وحسد الحاسدين ، الدين لم يسلم
من كيدهم وأداهم ، مؤكدا على أنه ماض فى حياته ، غير آبه بحسدهم ،
لان أصالته تلبى عليه أن يثنى عن عزيمة ، أو أن ينصرف عن أبائه
وهمته ، وقد سيطرت على هذه الأبيات روح الفخر والحماسة اللذين
حدهما بغرض سابق من أغراض قصيدته .

وفى هذا دليل على تناثر الأفكار واضطراب الأحاسيس فى قصيدة
واحدة ، شأن القدامى فى كثير من شعرهم الذى صوروا فيه مجموعة
من الأفكار وتناولوا فيه أكثر من غرض ، حتى كان ذلك منارا لسهام
النقد — التى وجهت اليهم والى من تقيد طريقتهم — من نقادنا
العصرين^(١) .

(١) أنظر فى ذلك : الديوان فى الأدب والنقد للعقاد والمازنى .

(٢) التجربة الشعرية :

تعنى التجربة الشعرية فى مفهوم النقد الأدبى الحديث — تأثر الشاعر بكل ما تقع عليه حواسه من صور وأحداث ، أو يدور فى نفسه من خواطر وأفكار يطوف حولها مستغرقا ، يستكشف جوانبها ويستكشف معالمها حتى تتضح فى نفسه صورتها وتتضح مشاعره وانطباعاته ازاءها، فإذا اكتملت هذه الصورة بأبعادها تأملا ووضوحا ومشاعر كانت « تجربة شعورية » مكانها الوعى الداخلى فى الانسان » •

وهذه التجربة الشعورية حين تلبس حدثا من الشعر تسمى (تجربة شعرية) •

وحتى تكون هذه التجربة مثيرة ، لا بد أن يظهر فيها عنصر الصدق والافتناع النفسى للشاعر ، فتجىء تعبيرا مخلصا أميناً عن شعوره ووجدانه ، لأن ذلك الصدق هو الذى يمنحها القوة والقدره على إثارة القارئ وهز مشاعره (١) •

وقد تحقق هذا المفهوم فى قصيدة البارودى هذه الى حد كبير ، ذلك أن كل المعانى التى صورتها أبيات القصيدة ، هى صدى لتأثر الشاعر بما جاش فى أعماقه من مشاعر الشوق وعواطف الجنين الى وطنه ، وبما وقع عليه حسه من مشاهد وأحداث تفاعلت معها خواطره وتأملاته ، وبقيت هذه الخواطر والتأملات كامنة فى أعماقه دى بؤرة الشعور ، حتى صورها تصويرا فنيا فى أسلوب شعري جميل جسد هذه الخواطر وجسم تلك المشاعر •

ونظرة متعمقة فى تجربة البارودى هذه نرى أن الشاعر لم يشغل التجربة أو يتكلف معانيها ، وإنما استمدّها من واقع مشاهداته

(١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٣٨ ، ٣٩ د /

محمد نايل •

وتأملاته ، ونسج خيوطها من أعماق حسه وانفعاله بمواطن ذكرياته ،
ومن ثم اتسمت تجربته بالصدق الشعوري والبعد عن الزيف أو تكلف
الاحساس ، أو مجازاة الآخرين في شعورهم لينال رضاهم ، كما يفعل
كثير من الشعاعرين (١) .

ولما كانت أفكار القصيدة — كما رأينا — تدور حول معانى ،
للمشوق والحنين والفخر والحماسة — فان هذه المعانى قد استمدتها
الشاعر من نبض وجدانه وأحداث حياته في فترة من الفترات ، هي التي
كان فيها مغتربا عن وطنه ، يحارب في البلقان في صف الدولة العثمانية ،
ومن ثم فانه لم يختلق التجربة أو يتكلف الاحساس فيبعد عن عنصر
الصدق الذي ينبغي أن تنقسم به التجربة — وتسقط قيمة شعره ،
بل أتت معانى قصيدته مطابقة لوجدانه معبرة عن حقيقة مناعره
وانطباعاته .

ولقد تمكن البارودي من تصوير تجربته تصويرا فنيا جميلا ،
من ناحية صياغته وأسلوبه وصوره وموسيقاه ، وواءم بين هذه العناصر
كلها في حدود امكانات الفنية — كما سنرى .

(٣) العاطفة :

العاطفة عنصر مهم من عناصر الشعر ، والشاعر أو الأديب بعامة
يهمه كشف جميع الأشياء وبيان تأثيره بها ، على عكس العالم — الذي
يهمه كشف الحقائق .

ولقد فطن اليها نقادنا القدامى ، وان لم يطلقوا عليها هذا الاسم ،
فعرّفوا الرغبة والرغبة والطرب والغضب وما اليها من عواطف ، وربطوا

(١) من نماذج هذا اللون شعر النفاق السياسى والاجتماعى ،
وشعر الغزل المتكلف والرثاء المصنوع ، مما تنص به كثير من دواوين
المعاصرين .

هذه العواطف بأغراض الشعر • فمع الرغبة يكون المديح ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجه (٢) •

ولقد أشار ابن تقيية الى أنواعها حين قال : « وللتشعر دواع تحت البطلية وتبعث المتكلف منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب » (١) •

كما عرفوا كذلك العاطفة الصادقة والعاطفة الكاذبة ، والقوية المؤثرة واستمرار العاطفة في القصيدة كلها ، وان لم يشيروا الى ذلك صراحة •

والعاطفة القوية هي التي تحرك الأحاسيس وتحبى الشعور وتعذى النفس وتوحى بالمطلوب ، ولا بد أن تكون مستمرة ثابتة في النص ، بحيث لا يحس القارئ بجذوة استعاليها ، ثم لم تلبث أن تجمد وتقل حرارتها ، عنده ، والعواطف الحية ينبغي أن تظل تائهة في فصول النص الأدبي كله لا تقل حرارتها ولا تخمد جذوتها (٢) •

وعند التطبيق على قصيدة البارودي التي بين أيدينا ، نرى أن العاطفة فيها قد بدت قوية حارة ، وذلك في مواقف تصويره منساعر الشوق آلام الفراق والحنين الى مواطن ذكرياته وديار أحبته •

ولكن حرارتها هذأت حين تريت وخمدت فيه جذوة الشوق وركن الى التمهيد والتماسك كذا رأينا في قوله :

فيا قلب صبراً ان ألم بك السنوى
فكل فراق أو تلاق له حد

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١/ ١٢٠ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد •

(١) الشعر والشعراء ٧٨/١ تحقيق أحمد محمد شاكر •
(٢) انظر ذلك مفصلاً في أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب ، وفي : النقد الأدبي للأستاذ أحمد أمين •

فقد يشعب الألفان أدناهما الهوى
ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد
على هذه تجرى الليالى بحكمها
فآونة قرب وآونة بعد
وهذا منطق العقل الحكيم ، لا منطق العاطفة المهائجة ، ولكن
عاطفة البارودى لم تلبث أن قويت لما عاد الى تصوير مشاعر الشوق
والحنين مرة أخرى ، بيد أنها كانت أقل حرارة مما بدأت به فى الأبيات
الأولى من القصيدة .

ومعنى ذلك أن البارودى قد وقع فى تفاوت عاطفى ازاء ترجمته
من معانى قصيدته ، هذه ، فتارة عاطفته حارة قوية ، ونارة أخرى
ترى عاطفته أقل حرارة وقوة وان لم تصل الى حد التور أو الصعف
وبعض النقاد يعزو عدم القدرة على إبقاء العاطفة مستمرة فى نفس
الأديب على درجة واحدة طوال مدة الانشاء لأسباب تتعلق بدرجة
تأثره وانفعاله .

ويرى البعض : أن استمرار العاطفة على قوة واحدة يصعب فيما
طال من القصائد الشعرية ، وهو أصعب منه فى الملاحم والقصص (١) .
ونحن نرى : أن البارودى لم يكن فى مقدوره أن يحتفظ بنوع واحد
من الاستمرار على قوة العاطفة وحرارتها من أول القصيدة حتى نهايتها ،
ولم يكن بد من هذا التفاوت الذى وقع فيه ، كما أن هذا التفاوت
لا يعيبه ، وذلك لأن قصيدته قد عبرت عن مجموعة من الأفكار والأعراض
المختلفة أو بمعنى أدق تناوبتها ، عواطف الشوق والحنين والعتاب
والحماسة كما لم تخل من بعض النصائح والحكم ، ولا يمكن أن نتفحص
عاطفة من هذه العواطف خصائص الأخرى .

(١) راجع محاضرات فى النقد الأدبى د/ حفى محمد شرف

ص ٤٨ .

ومن ثم أتت العاطفة عنده متباينة ، فهي قوية تارة ، هادئة أخرى حارة تارة ، الثالثة ، متريئة رابعة ، تبعا لتصوير المعانى التى تتناولها ، والتى اختلفت درجة تأثره وانفعاله بكل منها على حدة .

(٤) المعانى والصياغة :

المعانى فى قصيدة البارودى هذه ، وربما فى شعره كله قريبة المائى ، واضحة القصد ، بعيدة عن التعمق الذى تدركه فى معانى كثير من الشعراء ، الذين درسوا الفلسفات أو غاصوا فى مسائلها بتدبرا وحديثا وظهر صداها قويا فى شعرهم لاسيما فى معانية وأفكاره .

والسر فى ذلك أن البارودى لم يكن ولعا بغير الأدب وما يرتبط به من قريب ، وان ظهرت الحكمة فى شعره أحيانا ، ولكنها الحكمة الفطرية ، التى لا تحتاج الى اطلاع على كتب تلك الحكمة لئس يوع القول بها على السنة بعض الناس — كما يقول الأستاذ العقاد فى دراسة له عنه (١) .

كما أن معانيه فى جملتها ليست مبتكرة أو مخترعة ، بحيث يصح نسبتها اليه وحده دون من سبقه من الشعراء الذين قرأهم وتأثرهم وحاكاهم فى شعره معنى ومبنى .

فهو مثلا لم يزد فى تصوير شجاعته عن المعانى المطروقة التى حللها فيها سبق ، وفى تصويره شوقه وحنينه لم يزد عنى ما قاله القدماى من معان مكرورة معادة ، بل لا أظننى مغاليا اذا قلت : ان كثيرا من هذه المعانى عرفها بعض شعراء العصر العثمانى ، وان فقدت قيمتها عندهم وسط احتفالهم بالبديع واحتشادهم للصنعة .

وهذه أبيات من قصيدة للشيوخ عبد الله الشبراوى (٢) ، تدور معانيها

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢٧ .

(٢) هو الشيخ عبد الله شرف الدين الشبراوى كان من أكابر علماء

الأزهر فى عصره ومن أشهر شعراء زمانه (توفى سنة ١١٧٣ هـ) :

حول الحنين إلى مصر والتشوق إليها وهي بعض ما تناوله البارودي في قصيدته : يقول :

أعد ذكر مصر أن قلبي مولى
بمصر ، ومن لي أن تبرى مقلتي مصرا ؟
وكرر على سمعي أحاديث نيلها فقد ردت للأمواج سائله نهرا
بلاد بها مد السماح جناحه وأظهر فيها المجد آيته الكبرى
رويدا إذا حيدتني عن ربوعها
فتطويل أخبار الهوى لذة أخرى
لقد كان لي فيها معاهد لذة
تقضت وأبقت بعدها أنفسا حسرى

ومع هذا فيحمد البارودي صحة المعاني ووضوحها ، وبعدها عن الخطأ والفساد والاحالة ، وإن مال إلى المبالغة في بعضها ، كما رأينا سابقا ، وبخاصة في مواطن الفخر والتعبير عن الشجاعة .

أما صياغة القصيدة ، فهي متينة التركيب قوية النسيج ، قوية الأساليب ، ألفاظها فصيحة جزاة بعيدة عن الركاقة والابتذال والعامية التي تفشت في الشعر في عصره وما قبله ، حتى كادت تقضى على لغة الشعر وما لها من مقومات .

وهذه ميزة من مزايا البارودي ، حيث استطاع أن يثبت بالعبارة الشعرية وثبة أعادت إلى الشعر روحه وبعثت فيه حياته ، وتمكن من أن يعيد إلى شعرنا المعاصر إطاره العربي المتين ، وقالبه الفصيح ، الذي هجره الشعراء عن عجز وبلادة طوال عدة قرون .

والفاظ البارودي في شعره وإن كانت جزاة قوية في مجموعها ، بيد

انها تختلف فيه من غرض الى غرض ، ومن معنى الى آخر فى انقصيدة
الواحدة تبعا لاختلاف العواطف وتتوابعها •

وما يلزم كل عاطفة من ألفاظ تبرزها فى صياغة فنية معبرة عن درارتها
وقوتها أو عذوبتها ورققتها (١) •

فالألفاظ ترق فى موضع الشوق والحنين ، لأن هذه العواطف تناسبها
عذوبة اللفظ ورقته دون قوته وفخامته ، بينما تقوى هذه الألفاظ وتغخم
فى مواطن الحماسة والفخر وتصوير المعارك وما إليها ، لأن هذه المعانى
تتألب قوة اللفظ وفخامته وصخب جرسه ورنين موسيقاه •

ومن ذلك أنه استخدم فى حديثه عن تشوقه وحنينه الى وطنه هذه
الألفاظ وما شابهها :

الشوق — الموعة — الوجد — برد — ألد — الأسى — بفة عذرية
الحسناء — العطف — الود — الصد ••• الخ وهى ألفاظ عذبة رقيقة
فى حروفها وبنائها وجرسها ودلالاتها الصوتية •

وهى ترجمته عن معنى الحماسة وتدوير الشجاعة والبطولة التى أبداه فى
المعركة نراه — يستعمل هذه الألفاظ الفخمة الموحية بمعنى القوة والبسالة:
جواث — الشر — القنا — الموت — البعد — الدماء جداول — الجزر —
والمد — نسلهم — ثل العطاش — مقتول — طريح — يجاذبه القد —
مراغمة المسقى — نقع — كلج البحر — الدجى — ينغل — العجاج —
الليث — الطوى — صؤول — الرمح — السيف •• الخ •

=====

(١) أنظر فى ذلك كتاب : المثل السائر لابن الأثير • واتجاهات
وآراء فى النقد الحديث د/محمد نايل •

(٥) الصورة الأدبية :

الخيال في النص الأدبي عنصر من عناصره الرئيسية ، وهو في الشعر أساس من أسسه التي تعمل على إثارة العواطف ، كما أنه وسيلة الأديب أو الشاعر في نقل مشاعره وتجسيم عواطفه ومعانيه .

والشاعر الحق هو من يرى الأشياء برؤية ذاتية خاصة به هونتبن ما فيها من جمال أو غيره ، ثم يعرضها على قارئيه ومتذوقي فنه ، كما أحسها وأدركها وذلك في صورة مجسمة محسوسة يمكن للقارئ أن يتمثلها وكأنها حقيقة ملموسة ، وعلى قدر براعة الشاعر في هذا التجسيم يمكننا أن نقف على أسرار هذه الأشياء التي صورها فيتملكنا الإعجاب والرضا (١) .

والنقد الحديث يطلق على هذا الطريق الذي يسلكه الشاعر والأديب لعرض أفكاره ومشاهداته وتجاربهم عرضاً أدبياً مؤثراً فيسه متعة وإثارة : — الصورة الأدبية — وهذه الصورة يلونها الخيال ويجلوها من خلال المشاعر ، ويعلو بها عن أصلها الحقيقي الواقعي (٢) .

وصور الخيال في الشعر تأتي جزئية وكلية .

فالصورة الجزئية هي ما تستقل بمشهد صغير أو فكرة محددة تبرزها في إطار خاص يلاح لعرضها في كيان مستقل .

والصورة الكلية هي مجموعة هذه الصور الجزئية التي يتبع بعضها بعضاً في تتابع وتسلسل وفي اتساع ونمو ، حتى تكتمل من مجموعها الصورة الكبرى أو الكلية .

(١) أصول النقد الأدبي ص ٢١١ أحمد الشايب .

(٢) اتجاهات وآراء في النقد الحديث ص ٧٩ وما بعدها د/ محمد نائل .

وهذه الصورة الكلية يتعاون في تأليف أجزائها الألوان والظلال والحركات ووحى الألفاظ وموسيقاها في النص ، وتكون الصورة الجزئية في خدمة هذه الصورة الكلية .

والصور الشعرية التي ألفها خيال البارودي في هذا النص ، يطلب عليها التصوير الجزئي ، الذي يتمثل في مجازاته واستعاراته ، ويمكنك أن تدرك بعضها في قوله البيت السادس :
لعل حديث الشوق يطفى ، لوعة من الوجد أو يقضى بصاحبه الفقد
فلقد جعل الشوق حديثاً ، وجعل اللوعة — وهي حرقه الوجد تطفأ — كما تطفأ النيران ، والفقد يقضى وهكذا على سبيل التخييل ، وهذه صورة جزئية جسدت المعنى وشخصت الفكرة وجعلت القارئ يتمثل العواطف التي جاشت في أعماق الشاعر تمثلاً واضحاً قوياً .

وفي قوله في البيت الحادي عشر :
دعهم اليها نقصة عنزيه — وبالنقصة الحسناء قد يعرّف. الورد
تخيّل النقصة انساناً يدعو ويمكك الدعوة — وهكذا .

وفي البيت التاسع والثلاثين :
هو الحب لا يئنه نأى وربما تآرج من مس الضرام له الند

صورة جزئية جميلة قوامها — نأى يئنى ، وحب لا يئنى — على طريق الاستعارة المكنية ، وقد ساعد على جمال الصورة هذا التشبيه الضمني البديع — كما بيّناه في موضعه — .

ولكن مثل هذه الصور التي ألفها خيال البارودي صور قديمة عرفها القدامى في أخيلتهم ، واستعارها البارودي في شعره ، الذي كان ولعا فيه ببعث القديم وإحياء صور وأسانيه — كما علمت — وهذا لا يعنى على الإطلاق أن الشاعر بعد بشعره عن مبتكرات عصره ومظاهر بيئته في تصويره الجزئي . أو أنه اكتفى بهذا اللون التصويري لقط ، ولم يهتد

الى التصوير الكئى الذى يتطلب خيالا فسيحا خصباً ، يؤلف من مجموعة
الأتىاء صورة دقيقة معبرة •

وانما استمد البارودى بعض صورہ الجزئية أحيانا من مخترعات
عصره ، كقوله فى بيت من غزلياته :

وسرت بجسمى كهرباءة حسنه فمن العروق به سلوك تخبر

كما كانت تشع بعض الصور الكلية فى شعره • ولكنها قليلة •

ومن نماذجها فى هذه القصيدة أبياته فى وصف معركة البلقان
ونصوير جو هذه المعركة وأحداثها ، وما كانت تموج فيه من حركة ، وما
أسفرت عنه من نتيجة ، تصوير أدبيا رائعا تضافرت فى تأليف أجزاء صورته
الكلية مجموعة الصور الجزئية بداخلها ، كما عاونت فيها : الأصوات
والألوان والحركات •

وتلك فى الأبيات من : الحادى والأربعين الى الرابع والشمسين •

فأنت تسمع الأصوات فى : صرح الشر باسمه ، وفى صياح قنا
الموت ، وتندفع الجند ، وهمس البطل الجعد ، واشتباك الجند ، وحركة
البحر ما بين مد وجزر وغيرهما •

وترى الألوان فى : ضوء الصباح ، حمرة الدماء ، وبياض النجوم ،
وسواد الجو من تطاير النقع •

وتدرك الحركات فى : الجند الجواثى ، وسير المحاربين ، واستتال
الجند ، وتشابك الجنود وتراجعهم ، وشل العدو وتقتيله ، وهروبه ،
وأسره ومجازبة القد ، ونحوها •

(٦) الوحدة في القصيدة :

يرى بعض النقاد المعاصرين : أنه ينبغي في القصيدة أن « تكون عملاً شاملاً ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها » .

كما يرى : « أن القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره في موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف ، أو القلب عن المعدة ... الخ » (١) .

ومعنى هذا أن قصيدة البارودي التي بين أيدينا ، قد خلت من هذه الوحدة ، التي أطلق النقاد عليها حديثاً — الوحدة العضوية — والتي استقرطها قديماً أرسطو في الشعر المالحى والشعر التمثيلي وأعنى منها الشعر الغنائي على ما هو مفصل في مظهره (٢) .

ولقد كان هذا العنصر من عناصر الشعر مزاراً لمناقشات حادة صاحبه بين دعاة المذهب الجديد في الشعر وبين اصحاب التدييم وأنصاره من الأدباء والنقاد ، وترب عليها ما ترتب من العن من قيمة شعرنا التدييم وما جرى مجراه في رأى اصحاب الوحدة العضوية .

ونحن لا يعني هنا عرض ومناقشة آراء الفريقين ، بمقدار ما يعنينا استنباط مقومات هذه الوحدة في شعر البارودي ومنه هذه القصيدة .

(١) الأستاذ العقاد في كتاب الديوان ص ١٣٠ ط دار الشعب .

(٢) انظر : النقد الأدبي الحديث د/محمد زعيمى هلال في مبحث

— الوحدة العضوية — واتجاهات وآراء في النقد الحديث ص ٥٢

د/محمد نايل .

وبدهى أن هذه الوحدة ليست وحدة عضوية — بالمعنى الدقيق الذى تضمنه هذا المصطلح النقدي ، لأن البارودى قد ضمن قصيدته مجموعة من الأفكار التى بدت متناثرة موزعة فى ثنايا القصيدة • تلمس معها اضطراب احساسى الشاعر وتوزع مناعره ، وهذا عيب يخل بفن الشعر وبنائه فى مفهوم النقد الأدبى الحديث •

وربما كان للبارودى عذر فى ذلك ، فلقد انفلتت نفسه بمجموعة من الخواطر والأفكار التى تأملها ثم صاغها شعرا ، بعد أن اختمرت آثارها فى أعماقه ، وايس عليه من بأس فى ذلك •

ويحتمل من يرى أن قصيدته هذه قد خلت من الوحدة الفنية تماما بدعوى أن الوحدة فيها غير عضوية ، وإنما الوحدة فيها قائمة مهما قل من تساهلها العضويون ، وهى تتمثل فى وحدة الروح ووحدة الشاعر ، وتجانس الصياغة الفنية فى أسلوب القصيدة بين أفكارها وصورها وهذا وحده كافى فى تحقيق الوحدة فى القصيدة الغنائية بعامه •

(٧) البناء النفسى :

نهج البارودى فى بناء قصيده كله ومنه هذه القصيدة منهج القدامى فى تأليف شعريهم وبنائه ، من حيث تعدد الأغراض ، وتنوع الأفكار ، والوقوف على الديار ، ومخاطبة الصاحب ، والانتقال من غرض الى غرض ثم العودة الى غرضه الأول مرة أخرى ، هذا مع التزامه بفصاحة اللفظ وفخامة الأسلوب ، وتنوع الصور ووحدة الوزن والقافية وغير ذلك مما تميزت به القصيدة العربية القديمة •

(٨) الموسيقى :

أما الموسيقى فى النص فهى موسيقى رتيبة تمثلت فى وحدة الوزن ووحدة القافية وقد اختار لها وزنا طويلا يتكون البيت فيه من ثمانى تفعيلات — أى ثمانى وحدات موسيقية — يسهل معها أن يصب الشاعر أفكاره ومعانيه على قلوبها دون أن تحيق بها •

وهذه التفعيلات من البحر الطويل :

فعلون مفاعيلن فعلون مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

كما استعان فى رتابة هذه الموسيقى وتآليف أنغامها بالألفاظ ذوات الجرس الموسيقى الملائم للعرض والردال على المعنى ، وبالصورة الشعرية والرائحة بينية وبين بعضها من جهة ، وبينها وبين الألفاظ من جهة ثانية ، ويطلق على هذه العملية — الموسيقى الداخلية — ، التى يساعد على تحقيقها فى النص وحدة الشاعر والأفكار والأحاسيس بالأنساق الى ما ذكرته •

ولقد التزم البارودى فى شعره كله بالنظم فى قالب الموسيقى المأثور الذى تنوعت أنغامه تبعا لتنوع بحور الشعر العربى ، التى استتبطها الخليل ابن أحمد والتزم بها الشعراء فى الأغلب ، حتى طغت موجة التجديد فى هذا العصر فتحلل الشعراء رويدا من قيود هذا الوزن ، بل ان كثيرا منهم هجره وحاربه بدعوى أنه يضيق على الشعراء ويلزمهم بالتقيد بجمهوريات عهود غابرة ، وهذه الدعوى أثبت الواقع زيفها ، اذ لم تعلق بالأذهان نماذج أصداى هذه المحاولات لخواها من الرتابة الموسيقية التى ألفتها الأذهان ، وعرف بها الشعر العربى منذ القدم ، حتى كانت سمة من سماته وعنصرا رئيسيا من عناصره •

ولم يخرج البارودى عن هذه البحور الا فى وزن واحد اخترعه هو ، وصاغ عليه قصيدته الراقصة التى مطلعها :

أما القـدح وأص من نصـح
 وارو غلنى بأبنـة الفـرح
 فالفتى متى ذاتها أنـشـرح ... الخ
 ولقد تـأدبه شوقى فى هذا الوزن فى قصيدته التى مطلعها : —
 مـال واحـتـجب وادعـى الغـضب
 أيت هاجـرى يـشـرح السـبـب
 ووزن القصيدتين : فاعلن علن فاعلن علن

ومن الطريف أن — حافظ إبراهيم — أخذيتهم على هذا الوزن الجديد :

وعارض — شوقى — فيه بقصيدة هزلية على هذا الوزن مطلعها :
 شـال وانـخـبط وادعـى العـبـط
 أيت صـاحـبى يـبـلـع الزـلـط

وطالب من حاصرى مجلسه من الشعراء أن يجيزوه على هذا النمط ، فأجازوه حتى باخوا بالقصيدة ستين بيتا (١) .

وهذه القصة على طرافتها تعنى — فيما نرى — مدى تمسك أتباع مدرسة البعث من الشعراء المحافظين بمنهج التـدـامى فى بناء شعرهم وما آله من مقومات ، ونفورهم من التجديد الذى يمسخ الشعر ويحولـه الى طراز غير مألوف ، بالنسبة لهم ، وقد كان هذا مثار حملة خصومهم عليهم من جيل المذهب الجديد — كما سنرى .

(١) غلاسة وصعاليك ص ٦٤ للأستاذ محمد فهمى عبد الاطيف .

٣ - قصيدة حافظ إبراهيم

قالها في استقبال اللورد كرومر عند عودته من مصيفه بعد حادثة دنشواي •

النص

- (١) (قصر الدبارة) هل أتاك حديثنا
فالشرق ربيع له وضج المغرب
- (٢) أهلا بك الكرم ومرحبا
بعبد التحية انى أتعتب
- (٣) نزلت لنا الأسلاك عنك رسالة
باتت لهننا أحشأونا تتب
- (٤) ماذا أقبول وأنت أصدق ناقل
عنا ولكن السباسة تذبذب

١ - يخاطب الشاعر في هذا البيت القصر ويريد صاحبا
(اللورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر آنذاك ، وريع بانبناء
للمجهول من الروع وهو الفرع •

٢ - التعتب فى قوله (أتعتب) هو تواصف الموجدذ ومخاطبة
المدين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم والبيت يحمل معانى انهكم
والسخرية لكرومر •

٣ ، ٤ - يشير بالبيتين الثالث والرابع الى مقتطفات من تقرير
اللورد كرومر عن مصر نقلها البرق الى الصحف المصرية ، وفيها يطن
على المصريين ويضفهم بأنهم لا يرعون جميلا •

- (٥) علمتنا معنى الحياة دما لنا
لا نشرئب لها ومالك تغضب
- (٦) أنقمت منى أن نحس؟ وانمنا
هذا الذى تدعو اليه وتندب
- (٧) أنت الذى يعزى اليه صالحننا
فيمنا تقريره ليديك وتكتب
- (٨) ان ضيق صدر النيل عما هاله
يوم الحمام فان صدرك أرحب
- (٩) او كلما باح الحزين بأنة
أصبحت الى معنى التعصب تنسب!
- (١٠) رفقا عميد الدولتين بأمة
ضيق الرجاء بها وضيق المذهب
-

- ٥ - إشرأب يشرئب إشرئبابا : مد العنق للنظر • والمراد بها
فى البيت لم ندرك معنى الحياة الحرة الكريمة فى ذلك •
- ٦ - ندبه الى الأمر : دعاه اليه •
- ٧ - يعزى اليه : ينسب اليه • يشير الى ما كان يكتبه اللورد كرومر
فى تقاريره من أنه هو الذى جلب الخير والرفاهية لمصر •
- ٨ - يوم الحمام : أى يوم صيد الحمام الذى هو سبب حادثة
دنشواى المعروفة •
- ٩ - الأنة : من الأنين وهو التأوه ، ويشير الى ما وجهه الى
المسلمين فى مصر من التعصب الدينى ، وأن ذاك التعصب كان السبب
فى قتل الانجليز فى دنشواى •

١١ - رفقا عبيد الدولتين بأمة
ليستت بغير ولائها تتعذب

١٢ - ان أرهقوا صيادكم فلعلهم
للقبوت لا للمسلمين تعصبوا

١٣ - ولربما ضمن الفقير بقبوته
وسخا بمهجته على من يعصب

١٤ - فى (دنشواى) وأنت عنا غائب
لعب القضااء بنا وعزز المهرب

١٥ - حسبوا النفوس من الحمام بديلة
فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا

١٦ - نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم
لو كنت حاضرا أمرهم لم ينكبوا

١٢ - أرهقوا صيادكم : اعتدوا عليه وآذوه ، ويريد بالسياد
أحد ضباط الانجليز الذين كانوا يتصيدون الحمام فى دنشواى
ولاقى حتفه هناك •

١٣ - ضمن : بخل • وسخا بمهجته • • ألخة أى بذل نفسه
فى دفع من يغصبه طعامه • ويشير بهذا الى ما حدث من بعض هؤلاء
الصيادين حين أطلقوا النار على الحمام فأحرقت بعض أجران القمح
هناك •

١٥ - صوب : سدد ويقال صوب السهم نحو الرمية بالتشديد
إذا سدده •

- ١٧ - خلقتهم والقاسطون يمرصونهم
وسيطهم وحبهم ننبأهم
- ١٨ - جلدوا ولو منيتهم لعلقوا
بحبال من شبنقوا ولم يتهيبوا
- ١٩ - نسفوا ولو منحوا الخييار لأهلوا
بلظى سيط الجالدين ورحبوا
- ٢٠ - يتحاسدون على الممات ، وكأسه
بين الناس فاه وطعمه لا يعذب
- ٢١ - موت - ان : هذا عاجل متمر
يرف ، وهذا آجل يترف
- ٢٢ - والمس تشار مكاثر برجاله
ومعاجز ومنعاجز ومحزب

- ١٧ - القاسطون : الظالمون الجائرون عن الحق ، قال الله تعالى :
(وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) • والمرصد : المرقب •
- ١٨ - منيتهم : أى خيرتهم فيما يتمنونونه من أخف أنواع العذاب •
- ١٩ - أهلوا ورحبوا : أى تناولوا أهلاً ومرحباً •
- ومعنى البيتين : أن كلا ممن جلد وشنق رأى فى عذابه من الشدة
ما تمنى معه أن يستبدل به عذاب أخيه ، واللظى النار أو لهبها •
- ٢١ - المتنمر : الغاضب تشببها له بالنمر ، لأن من عادته ألا يلقاك
دائماً الا متتكرراً غضبان •
- ٢٢ « السنشار » يريد به هنا المستر بوند الانجليزى ، وهو من
قضاة المحكمة النى حكمت على متهمى « دنشواى » • والمعاجز من
عاجزت الرجل اذا أتيت بما يجعله عاجزاً •
- والمعاجز : المقاتل المبارز ، ومحزب أى مفرق أعوانه ، فبعضهم
يتولى أمر الجلد والبعض يتولى أمر الشنق • • • الخ •

- ٢٣ - يحقّـال فى أنحـائـها متبسـما
والدمـع حـوك ركابـه يتصبـب
- ٢٤ - طاحوا بأربعة فأردوا خامسا
هو خير ما يرجو العميد ويطلب
- ٢٥ - حبّ يحاول غرسه فى أنفـس
يجبـنى بمغرسـها الثناء الطيب
- ٢٦ - كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا
للمسـتشار فان عداك أخصـب
- ٢٧ - وأفـص على (بند) اذا ولى القضاء
رفقا يهـنـس له القضاء ويطلب
- ٢٨ - قد كان حـواك من رجـالك نخبة
ساسوا الأمور خدربوا أو نـدربوا
- ٢٩ - أقصيتهم عنا وجئت، بفتيتـه
طاش الشـباب بهم وطار المنصب

٢٤ - طاحوا بأربعة أى ذهبوا بنفوسهم ، وأردوا : أهلكوا .
ويريد بالخامس : الحب المذكور فى البيت الآتى (٢٥) .

٢٩ - أقصيتهم : أبعدتهم . وطار المنصب أى خفت أحلامهم
من الغرور بمناصبهم .

٣٠ - فاجعل شـعارك رحمة ومودة

ان القلوب مع المودة تتـحسب

٣١ - واذا سببت عن الكنانة قلب اهم

هي أمة تلهـو وشـعب يـسحب

٣٢ - واستبق غفـلتها ونـم عنـها تنم

فالنـاس أمـثال الحـوادث قلب (١)

٣٢ - فالناس قلب أى متقلبون مثل تقلب الحوادث •

١ - ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ ص ٢٢ وما بعدها - الهيازة النصرية

العامة للكتاب ١٩٨٠

حول القصيدة

١ - المناسبة :

فى يوم الأربعاء ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ م ، قام خمسة من الضباط الانجليز من معسكرهم ، وقصدوا الى بلدة دنشواى باقليم المنوفية من أعمال مركز تلا ، لصيد الحمام ، فأصابوا بعض أهالى البلدة برصاص بنادقهم ، وقد اصطدم هؤلاء بالانجليز وأصابوا بعض الضباط باصابات أفضت الى الموت ، وهناك ثارت ثائرة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية اذ ذاك ، وعقدت المحكمة المخصصة لمحاكمتهم ، وكان المدعى مومى فيها ابراهيم الهلباوى المحامى المعروف ، وقضت هذه المحكمة بدام أربعة من الأهالى وجلد وحبس ثمانية منهم ، وقد نفذ الاعدام والجلد فى نفس البلد على مرأى ومسمع من أهله ، وكان فى ذلك الحكم وفى تنفيذه من القسوة ما أثار الأنفس وأطلق السنة الوطنيين وزعماء النهضة بما يجينس فى النفوس من أسى وحسرة .

ولقد عرف عن حافظ ابراهيم بأنه كان من شعراء الوطنية الكبار فى مصر ، وأن أحاسيسه المفعمة بحب الوطن كانت تتفاعل سريعا مع أى خطيب يدهمه أو أية كارثة تحل به ، وكان يترجم هذا الاحساس فى شعر ينبص بالوطنية ويغيض بعاطفة حب الوطن والغربة على ما يزل به من مآسى الاستعمار وجبروته .

كما كان حافظ أسبق الشعراء فى هذا التفاعل الوطنى ، وسرعان ما كان يطلع على الأمة اثر كل حادثة وطنية بقصيدة حارة تلهب الشعور وتثير الحماس فى نفوس أبناء مصر . فلقد نشر قصيدة له عن حادثة دنشواى فى ٢ يوليو سنة ١٩٠٦ قبل هذه القصيدة التى نشرها فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٦ م .

وقد استهل قصيدته الأولى بقوله مخاطبا الانجليز (١) :

أيها القاتمون بالأمر غينا
هل نسيتم ولائنا والوداد

ذخسوا جيشكم ونامسوا هنيئا
وابتغوا صيـدكم وجوبوا البلاد

واذا أعوزتكم ذات طـوق
بين تلك الربا فصيـدوا العباد

انمنا نحن والحمـام شـواء
لم تغـادر أطـواقنا الأجيـاد •

وهذه الأبيات تتطوى على سخريّة مرة من الانجليز الذين عانوا فسادا في مصر بسياساتهم العاشمة وجورهم وعسائهم وجبروتهم ، كما تصوره الثورة الكامنة في نفس حافظ الذي ضاق ذرعا بوجود الدخيل في وطنه الذي كهم الأفواه وأغل الرقاب وانتكح حرمة الأدميين وجد في القضاء على الحرية التي منحها لهم الله — عز وجل — •

كما يقول مخاطبا اياهم في كيد ينبض بالحسرة ومراره ضاقت من مذاقها نفسه :

أحسبـنوا القتل ان ضـننتم بعـفو
أنفوسـبا أصـبـبتم أم جمـاد ؟

أحسبـنوا القتل ان ضـننتم بعـفو
أقصـاصا أردتم أم كيـاد ؟

١ — ديوان حافظ ٢٠/٢

ليت شعري أتلك (محكمة التقـ

تيش) عادت أم عهد (نيرون) عاداً؟ (١)

ويهتملى ديوان حافظ بالشعر الوطنى الذى يترجم فيه عن مشاعره
الوطنية أصدق ترجمة ويصور فيه عواطفه أحـ تصويراً *

واقراً لى ديوانه رثاء للزعماء الوطنيين كمصطفى كامل ومحمد
فريد وسعد زغلول مما ينم عن حس وطنى صادق ، وهكذا شعره فى
رثاء المصلحين والأدباء والقادة من أمثال الشيخ محمد عبده وأمين
الرافعى وغيرهما *

ومثل شعره فى كافة المناسبات والأغراض الوطنية الذى يسلكه فى
عداد شعراء الوطنية الكبار فى مصر ، بل وفى الوطن العربى كافة *

٢ - أفكار القصيدة :

هذه القصيدة تمثل غرضاً من الأغراض الجديدة التى عى بها
الشعراء المحافظون فى شعرهم ، وهو الشعر الوطنى الذى رصد فيه
الشعراء كل ما كانت تمر به مصر من أحداث وطنية آنذاك ، وهذا اللون
من الشعر الوطنى لا يكاد يخلو من ظروف الحياة فى مصر ، وهو

١ - تعرف محاكم انتفتيش بالقسوة والظلم واضطهاد الناس
ومصادرة أملاكهم ، ثم احراقهم من غير أن تترك لهم فرصة للدفاع
عن أنفسهم ، وقد استغلت تلك المحاكم فى اضطهاد العرب فى اسبانيا فى
آخر أيامهم بها حتى تم جلاؤهم عنها فى سنة ١٦٠٩ م
ونرون هو الملك الرومانى المعروف بالظلم والفسوة والاستبداد ،
ومما ينسب اليه أنه أحرق مدينة روما ، وكان يوم احراقها يشاهد
النيران تأكل المدينة وأهلها فيسر لهذا المنظر كأنما ينظر الى رواية تمثل
فى ملهى من الملهى *

مرآة صادقة لهذه الحياة بما كانت تشج به من أحداث وما كان يمر بها من مناسبات (١) .

ولقد عمل الاحتلال البريطاني لمصر على اذكاء هذا التيار الشعري وتوجيهه في نفوس الشعراء ، فبينما جد هذا الاحتلال النظام في تعويق نهضة المصريين واغتصاب خيرات بلادهم وامتهان ثراوتهم وحرينهم ، مضى أصحاب هذا التيار في التذيد بالاحتلال ومهاجمته وغضخ سياسته وكشف أليعه ، بحيث يمكننا أن نعد مثل هذا اللون الشعري أقوى سلاح في مقاومة الخصم والتصدي للعدو .

وقصيدة حافذا التي بين أيدينا تنظم فكرتين أساسيتين هما :
(أ) تهكم الشاعر وسخريته من عميد بريطانيا في مصر — النورد كرومر — الذي استباح الحرمات واستهان بحرية الشعوب ، وجد في فرض سيطرته على المكشودين المحطمين بسياط البغي المسلوبين على مشائق الاستبداد والظلم .

(ب) تصوير ما وقع بهذا البلاد الوادع من حادث مروع مفزع وعدوان غاشم رهيب في مأساة حزينة نكب بها أهل دنشواي ، فأقفر ديارهم حين تركوا الخالين ينزلون بهم عذاب الجذ بالسياط والقفل بالمشائق ، والمستشار بوند قاضي المحكمة الانجائزي ينسهد تنفيذ الأحكام في غبطة واختيال ، لا يبالي بما يتصبب حول ركابه من دمرع وأحزان .

وتحت هاتين الفكرتين الرئيسيتين في القصيدة بث الشاعر أفكاره الودانية وعواطفه الحارة ، التي تنطق بفداحة الخطب وعظم المصاب . ويمكن القارئ أن يدرك في يسر كل فكرة من هذه الأعمار التي تشكل المعنى الوطني للقصيدة .

١ — راجع : التيارات الجديدة في الشعر العربي الحديث في مصر دس ١٢٨ وما بعدها . د/عبد اللطيف خليف .

٣ - الخصائص الفنية :

(أ) الألفاظ والمعاني :

إذا أنعمنا النظر في قصيدة حافظ التي بين أيدينا نرى أن بعض عناصر الشعر قد تفوق فيها الشاعر تفوقا ملحوظا ، بينما قصر في بعض العناصر الأخرى وربما كان مرد هذا القصور - فيما نرى - ملكته الفنية أو ثقافته التي تصقل الطبع وتعين تلك الملكة .

ومن العناصر التي برز فيها حافظ في شعره وكانت موضع إشادة من نقاد شعره ودارسيه عنصر الصياغة التي عبر بها عن معاني شعره ، فالألفاظ قوية جزلة فصيحة معبرة عن معناها دالة على عاطفتها ، ولقد عرف عن حافظ أنه كان يفتش عن اللفظ حتى يجد أنسبه لنفسه وأنسبه لمعناه ، ويعرض للمترادفات يقلبها حتى يختار خيرها ، وينثر كنانته ليتخير أسدها عودا وأصلبها مكرا ، ويعمد إلى الأساليب ينسجها ليوائم بين المعنى واللفظ والأسلوب .

وكان حافظ يسمى هذه العملية كلها « التذوق » ويمدح بعض الشعراء بأنه « دواق » يريد بذلك أن له ذوقا مرهفا في اختيار اللفظ واختيار الأسلوب .

وقد بالغ في ذلك حتى كان جهده في اختيار الألفاظ والأساليب يفوق جهده في ابتكار المعاني ، فهو يذهب مذهب من يرى أن المعاني مطروحة في الطريق ، وإنما الاجادة في الصياغة ، وهو يستعين على ذلك بالموسيقى ، موسيقى اللفظ وموسيقى الأسلوب وموسيقى الأوزان والقوافي (١) .

وأنت وأجد في قصيد حافظ التي نحن بصدد تحليل عناصرها تلك الخاصة من خصائص شعر حافظ ، ولا بأس من أن نعيد عليك بعضا من أبياتها لنرفع على هذه السمة .

(١) راجع مقدمة د. إ. ح. حافظ ٨٩/١ و ٩٠ الأستاذ أحمد أمين .

يقول حافظ مخاطبا اللورد كرومر فى الفاظ منتخبة وصياغة
منتقاة :

رفقبا عميد الدولتين بأمانة
ليستت بنغير ولائها تتعذب

ان أرهقوا صيادكم فلعلهم
للقبوت لا للمسلمين تعصبوا

واربما نسب الفقير بقبوته
وسبنا بماهجتبه على من ينصب

أو قوله :

موتان هذا عاجل متمر
يرنن وهو هذا آجل يترقب

والمنشمار مكنر برجلاله
ومعاجز ، ومنعاجز ومحارب

يختال فى أنجائها متبسما
والدمع حول ركابه يتصبب

ولست فى حاجة لى أن أقول : ان حافظا أدار هذه الألفاظ
ومترادفاتها لى مثيلاته ثم انتخب منها ما يرضى ذوقه وينهض للتعبير
عن المعنى الذى استهدفه .

أما المعانى عند حافظ وفى شعره فهى معان قريبة الفهم سريعة
الادراك واضحة المغزى ، بعيدة عن العمق والتوليد والاستقصاء ، لا يعوز
القارى كد ذهن أو أعمال خاطر فى قصيدها وادراك كنهها ، والوقوف
على أبعادها ومناحيها ، ومن ثم كان يشترك فى فهمها عامة الشعب

وخاصته : وكان يترجم عن كل المناسبات شعرا يذيعه على الناس فتسريح
اليه وجداناتهم وتطرب له ، كما كان حافظ ترجمان الأمة في شطر غير
قصير من حياته . فلا عليه من بأس اذا ساق اليها من المعاني ما تسيغه
دون جهد أو روية هذا من جهة *

ومن جهة أخرى وهي الأهم — في تقديري — أن حافظا لم يكن
موفور الثقافة منوع المعارف ، لأنه لم يك مغطورا على التقيد بقيود
المدرس الرتيب والاطلاع المنظم الذي يعين على المعرفة والثقافة
وهما من ألزم خصائص الوقوع على المعنى العميق والفكر الدقيق ، ولقد
طبع شاعرنا على الحرية وعدم الالتزام بقيود المدرس والبحث ، وقد
انحصرت روافد ثقافته — كما ذكرنا — في الكتب الأدبية القديمة —
كالأغاني — وغيره ودواوين الشعراء القدامى الذين قرأهم وأعجب
بطريقتهم واخزن في ذاكرته كثيرا من شعرهم كما أنه لم يتقن لغة أوروبية
تساعده على هضم ثقافة من الثقافات الأوروبية كالانجليزية أو الفرنسية
وتتيح له التأثير بهذه الثقافة في شعره — كما كان من معاصره شوقي —
مثلا . الذي أدخل الشعر المسرحي في أدبنا العربي اثر تأثره بالمسرح
الأوربي ، ولم يعز الى حافظ أنه قرأ الفلسفات المختلفة وتأثر بها في
شعره الذي خلا من كل معنى عميق أو فكر دقيق أو فلسفة قوية *

لهذا أنتت معاني شعر حافظ سهلة بيّنة لا غوص فيها ولا استقصاء
ولا توليد ، وكل ما فيها ومالهام من ميزة أنها عبرت عن الأغراض الجديدة
التي استوحاها من بيئته بما لها من سمات ، ومن عصره وما
أدب به من أحداث وخطوب *

ومعاني حافظ في شعره تكاد تكون مكرورة معادة قد وقع عليها
بعض الشعراء قبله ممن قرأهم وتأثرهم . وان كان يجد أحيانا في
تدبير المعنى المبتدر أو احصاية المعنى الجديد ، وربما انقاد اليه نارة
ونابى عليه تارات *

ومثاله في هذه القصيدة البيت الثامن الذي يقول فيه حافظ مخاطبا الورد كرومرا :

ان ضاق صدر النيل عما هاه
يوم الدمام فان صدرك أرجب
فضيّق صدر النيل — أو سكانه مما أفزعه في حادث دنشواي
الرهيب معنى مألوف ، واتساع صدر الورد اسماع شكايه المتكويين
والمروعين اتساعا يضيّق عنه النيل مع ما عرف عن هذا الطاغية من
قسوة القلب وتبلد الحس معنى تهكمى ساخر جد الشاعر في نصيده
لاسمالة هذا الجبار المتسلط .

ومهما يكن فان المعنى الشعري عند حافظ كما تبين لنا من خلال
هذه القصيدة ، من العناصر التي لم يتفوق فيها حافظ والتي لم تصل
به الى منزلة الشعراء الذين عرفوا بعشق المعنى الشعري وغزاقته
ودقته .

الخيال الشعري :

والخيال الشعري عند حافظ في هذه القصيدة ، بل وربما في
شعره جميعه خيال جزئي محدود لم يخلق بصاحبه في أجواء فسيحة
رحبة ، ولم يؤهله لتأليف صور شعرية تفتن في تجسيد معانيه
وتشخيصها تشخيصا مؤثرا في الوجدان وفي عالم الحس الشعري وتنفذ
في باطن الشئ ، وأغواره حتى تصل الى مكان الحياة فيه ، ثم تنقل الى
القارئ ما أحسه الشاعر نقلا فنيا مثيرا ، لأن الشاعر الحق من يرى
الأشياء بحسه ويتمثلها بشعوره ووجدانه فينفعل بها ويتفاعل معها ،
وعليه أن يجد في نقلها الى غيره مستعينا بأدواته الفنية وطاقاته التعبيرية
والتصويرية .

وعلى قدر اجادته تمثل الأشياء وغوصه فيها ورسم صورة دقيقة
لها بخياله المالح وبيانها المعبر تكمن قيمة شعره ويقوى أثره في النفوس

يتحول الأستاذ الشايب : « والشاعر الحق هو من يرى الأشياء برؤيه فنية خاصة به هو تتبين ما فيها من جمال أو غيره ، ثم يعرضها على قارئيه ومتذوقي شفه ، كما أحسها وأدركها ، وذلك في صورة مجسمة محسوسة يمكن للقارئ أن يمثّلها وكأنها حقيقة ملموسة ، وعلى قدر براعة الشاعر في هذا التجسيم يمكننا أن نقف على أسرار هذه الأشياء التي صورها فيمليدنا الرضا والاعجاب (١) »

والخيال الشعري عند حافظ — كما قلنا — خيال متواسع محدود قل يصيبه من الابتكار ونادر حظه من الافتتان في التصور والتحليل ، وهذا بالطبع راجع الى قصور في ملكته المبدعة وتقصير فيما ينمي هذه الملكة من الطالع وثقافة ورحلات وما إليها من وسائل خصوبة الخيال وسعته .

وهذا الخيال الشعري وان أصاب حافظ كثيرا من صروبه وأوانه في هذه القصيدة وغيرها ، فانه لم يتجاوز الخيالات الشعرية المألوفة عند كافة الشعراء من مجاز وتشبيه واستعارة ، يؤلف منها صورا جزئية تساعد على تجسيم المعنى وتثخينه ولكنها لا تنم عن قدرة في استقصاء الصورة وتحديد أبعادها وتشكيل معالمها ووضعها في إطار فني معبر .

ولما كان الغرض الأساسي في هذه القصيدة هو تصوير روعة الخطيب الذي أصاب بادة دفتشواي ، والتعبير عن جسامه هذا الخطب وفداحته مما يعكس وطنية حافظ وغيرته وضيقة بالاحتلال . فلقد كان هذا الغرض كافيا لأن يحمل الشاعر حملا على أن يصور لنا صورة كلية بارزة للقسمات بادية السمات يرى فيها القارئ ما أحسسه الشاعر ونقد إليه وجدانه ، ولكن ذلك لم يتحقق في هذه القصيدة ، وانما أتت صورها باهتة فارغة تعبر عن واقع وتؤرخ لحادث .

(١) أصول النقد الادبي ص ٢١١ • أحمد الشايب •

كقوله مثلا يخاطب اللورد في مرارة :

في دنشواى وأنت عنا غائب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة
لعب القضاء بنا وعز المهرب
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم
فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد
لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
وسياطهم وحبالهم تتأهب
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات ، وكأسه
بين الشفاه وطعمه لا يعذب الخ

وفى هذه الأبيات تمكن الشاعر من أن يصور لنا هذا المشهد المروع تصويرا لا يخلو من براعة فى تمثيل المشهد الرهيب الدامى الذى نال لنا جريمه كبرى من الجرائم التى نال يرتكبها المستعمر الغاشم والاحتلال البغيض على مرأى ومسمع من الأهالى المنكوبين •

كما صور لنا مدى صمود أبناء هذا البلد المنكوب لهول المستعمر وجبروته ، — وكيف استقبل هؤلاء فى مقاومة العذاب الذى حاق بهم ، وعدوا الموت فى سبيل الدفاع عن الوطن ومحارمه واجبا تمليه عليه وطنيتهم التى استعذبت الموت من أجل حرية الوطن •

ولكن هذا المشهد الدامى لو نفذ اليه خيال محلق لمنحنا صورة أقوى وتصوير أكثر افقتانا وذلك كما فعل شوقى فى قصيدته عن « دنشواى »^(١) فى الغرض نفسه اذ يقول :

(١) الشوقيات •

يادنشواى على رباك سلام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا
مرت عليهم فى اللحد أهلية
كيف الارامل فيك بعد رجالها
عشرون بيتا أفقرت وانتابها
ياليت شعري فى البروج حمائم
«نيرون» لو أدركت عهد «كرومر»
نوحى حمائم دنشواى وروعى
ان نامت الاحياء حالت بينه
متوجع يتمثل اليوم الذى
السوط يعمل والمشائق أربع
والمستشار الى الفظائع ناظرا
فى كل ناحية وكل محلبة
وعلى وجوه الثاكين كآبة

ذهبت بأنس ربوعك الأيـام
هيات لشمس الشتيت نظام
ومضى عليهم فى القيود العام
وبأى حال أصبح الأيتـام
بعد البشاشة وحشة وظلام
أم فى البروج منية وحمام ؟
لعرفت كيف تنفذ الأحكام
شعبا بوادى النيل ليس ينـام
سحرا وبين فراشه الاحـلام
ضجت لشدة هوله الأقمـام
متوحدات والجنود قـيام
تدمى جلود حوله وعظـام
جزعا من الملا الأسيف زحـام
وعلى وجوه الثاكلات رغام

خلقد برع شوقى براعة فائقة فى تصوير هذه المأساة تصويرا
صادقا ينبض بالألم والمرارة ، وأمضه ما أصاب دنشواى من هـول
مروع وحكم جائر قضى بالموت على فريق من أهلها وقضى بالسجن على
فريق آخر ، فأفقرت به بيوت بلغت العشرين وانتابتها الوحشة
وخيم عليها الظلام بعد البشاشة والأنس •

كما صور شوقى فى هذه الأبيات غضبه التائر على اللورد كرومر
الذى فاق نيرون فى طغيانه وظلمه وقسوته ، وصب جام غضبه على
المستشار بوند الانجليزى الذى كان من قضاة محكمة دنشواى ، والذى

وقف يشهد العذاب الذي قضى به على المتهمين من أهل القرية الحزينة التي أحزنت مصر كلها وأحالت شعبها إلى رجال ثاكليين ونساء ثاكلات • ولقد عقب بعض أساتذتنا على أبيات شوقي هذه بكلام جاء فيه « ولست أجد أبلغ في تمثيل هذه المأساة المروعة لمصر كلها ، ولا أدق في تصوير الحزن الذي أصاب المصريين كافة ، فأقض مضاجعهم وحرّمهم النوم من هذا البيت الباكي الحزين •

نوحى حمائم دنشواى وروعى شعبا بواى النيل ليس ينام^(١)

ومهما يكن فإننا لا نلزم حافظا بأن يتجاوز طاقته في التحيل وقدرته على التصوير ، كما لا نلزمه بأن يتخطى استطاعته في توليد المعنى واستقصائه والبحث عنه ، كما أننا لا نذهب مذهب من رأى أن حافظا ناظم للالفاظ مصنف لها وأن ما جادت به قريحته مهما كثر لا يسلكه في عداد الشعراء الذين أوتوا حظا من الطبع ونصيبا من الفن •

ولكننا نقول : ان حافظا شاعر من رواد شعرنا الحديث نبض حسبه بما كان يجيش في أعماق مجتمه ، وراح يترجم عن وجدان الشعب وطموحه وآلامه وآماله ، ويهدف في كل مناسبة ويعبر عن كل مشكلة ، وقد استقامت له بعض عناصر الشعر حتى كانت موضع إشادة نقاده ودارسيه — كعصر الصياغة ، وتدفق العاطفة — وجمحت به بعض العناصر الأخرى — كالمعاني والاختلة — وحسبه ما قد فعل •

يقول عنه الدكتور شوقي ضيف : « كان حافظ يشعر بما يشعر به شعبه شعورا دقيقا لأن نفسه كانت مصرية خالصة ، واستطاع أن يصوغ هذا الشعر في لغة متينة جزلة صياغة باهرة ، وبذلك يتبوأ مكانته في تاريخ شعرنا الحديث » • (٢) •

(١) القيارات الجديدة في الشعر العربي الحديث في مصر ص ١٣٠

د • عبد اللطيف خليف •

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ١١٠ •

دراسة عن حافظ إبراهيم ١٨٧٠ هـ : ١٩٣٣ م

- ١ -

ينتمى حافظ إبراهيم الى المدرسة التي رادها البارودى والنسبى
استنبطنا أصولها فيما سبق — وقد كانت هناك بواعث كثيرة قربت بين
الشاعرين. فى الطريقة وما زالت بهما حتى جمعت بينهما بعد ذلك بجامعة
المودة والألفة .

فحافظ قد اختار حياة الجندية كما اختارها البارودى من قبله ،
وحافظ كان مظهرًا كصاحبه على ايثار الجزالة والاعجاب بالصياغة
والفحوة فى العبارة ، وكان كصاحبه أيضا من حزب التمرد والثورذ لامن
حزب التسليم والاستكانة ، وكان الشيخ حسين المرصفى استاذ الشاعرين
وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام^(١) ، ولا يعنى هذا أن حافظا
كان نسخة مكرورة من صاحبه بل كانت هذه البواعث التي قربت بين
الرجلين عاملا من العوامل التي جعلت من حافظ شاعرا من أبرز شعراء
هذه المدرسة .

ولعل أقوى الروافد التي غدت شاعرية حافظ ما كان يقرؤه من كتب
الادب الاولى « كالأغانى » وغيره ، وما كان يحفظه ويديرسه من دواوين
القدماء دراسة غير منتظمة حيث كان يكتفل فى مطالعته من من الى فن
ليرضى ذوقه فى أوقات فراغه ، حتى اذا عثر على أسلوب رقيق
او معنى دقيق اختزنه فى نفسه — كما يقول مترجمه فى صدر ديوانه^(٢) .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٢ .

(٢) مقدمة ديوان حافظ إبراهيم — للاستاذ / أحمد أمين —

مطبعة القاهرة ١٩٣٧ .

على أن هناك عوامل أخرى قد أسهمت في التكوين الأدبي لحافظ، وكانت له رافدا أعانه على التبريز في بعض أغراض الشعر التي بذ فيها كثيرا من شعراء عصره في مرحلة من مراحل حياته الفنية •

منها : غشيانه مجالس العلماء والمصلحين وقادة الرأي في الأمة ،
فلقد اتصل بالامام محمد عبده ، وحضر بعض دروسه التي كان يلقيها
على نخبة من الفضلاء في منزله — بعين شمس — وصاحبه في مجالسه
وأسفاره كما ارتاد مجالس أمثال : سعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى
كامل ونحوهم من الزعماء الوطنيين والمصلحين ، وكان يؤم مجالس
الأدباء — في منتدياتهم — كمطران والبشرى وامام العبد وغيرهم ، وكانت
هذه المجالس تجمع بين الأدب والفكاهة والنادرة (٣) •

وقد ألم حافظ بالفرنسية واطلع على شيء من آدابها وترجم
البؤساء لفكتور هوجو ، وان لم يؤثر ذلك في شعره كما ينبغي ، فهو
وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين في قراءة
الآداب الأوروبية ، فلا تجد بين المعارفين باللغات الأجنبية أحدا أشبه منه
بمن يجهلونها ولا تجد بين جاهليها أحدا أشبه منه بمن يعرفونها « كما
يقول العقاد عنه (٤) •

هذا الى أن حافظا قد فطر على الشعور بالأسى والألم منذ صدر
حياته ، مما جعله ينعفس في طبقات الناس ويتعرف على مآسيهم
ويعايش مشكلاتهم وقضاياهم ، ويستمد من هذه العوامل كلها موضوعات
شعره وتجاربه •

(٣) راجع : فلاسفة وصعاليك لمحمد فهمى عبد اللطيف •

(٤) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٦ ، ١٧ •

وقد برع حافظ في تصوير عواطف المجتمع ووجدان الأمة ، وآلام الشعب ومآسيه براعته في تصويره احساسه بالألم وشكوى الزمان التي لازمته منذ وقت مبكر من حياته ، حتى قدمه الدكتور طه حسين على شوقي في هذه الأغراض . على الرغم من غزارة ثقافة شوقي وتعدد روافدها (٥) .

كما كان المقاد منصفاً حين جعل — حافظاً — وسطاً بين شعراء الحرية القومية وشعراء الحرية الشخصية ، حيث لم يهمل الناحيتين ولم يبلغ في احدهما مبلغ الكمال ، فهو شاعر الحياة القومية في كلامه عن اللغة النصحى وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواي وعن أزمات المال والسياسة وعن مضاربات الأغنياء في سوق القطن واضرار الشركات بالبلاد .

ثم هو شاعر الحياة الشخصية في شكواه وهزله وخمريات—ه ومساجلاته . وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه — وخلجات طبعه . فليس نه في أبناء جيله نظير في الجمع بين الخصلتين والظهور بحالة تومه وحالة نفسه معا على صفحات ديوانه « (٦) » .

ومكانة حافظ في شعرنا المعاصر ، فيما نرى — تكمن في أنه أودع في كثير من أغراض شعره — مشاعر أمته وقضايا وطنه ومشكلات مجتمعه — كما حور فيه ما جاش في نفسه من مأس وآلام ورثها عن بيئته ، لا سيما في المرحلة التي كان يحيا فيها طليقا لم تغله قيود الوظيفة (٧) .

(٥) حافظ وشوقي ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٦) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٦ .

(٧) كانت هذه الفترة ما بين ١٩١١ — ١٩٣٢م — أي في المرحلة الأخيرة من حياته .

أما في مرحلة توخفه فقد كان مضطرا لأن يلتزم ، وأن يمالئ أو يدارى • ومن ثم حمل شعره ما لم تحمله مشاعره وما لم ينبع من أعماقه ، فمثلا شعره في هذه الآونة من روعة الفن وجمال الشعر وانتقد كثيرا من عناصر الشعر التي تضمن له البقاء والمخلود في دنيا الفن المعتمد به •

وقد جر عليه ذلك من وابل النقد ما جعل بعض الدارسين يرمض شعره ويقلل من قيمته ويسمه بالنظم الذي لا غناء فيه ^(٨) •

وثمة ميزة أخرى تتعلق بسمت شر حافظ هي أنه د أسهم به في تأصيل المدرسة الشعرية التي رادها البارودي — صياغة وأسلوبا وبناء — تلك التي خلصت الشعر مما كان يتردى فيه من ركاسة وابتذال وصنعة •

ويكاد النقد يجمعون على أن حافظا لم يجدد في أساليب الشعر وصوره وأخيلته وموسيقاه ، وما إليها ، ولكن تجديده ينحصر في الأعراض التي ألماتها أحداث العصر ، كشعر السياسة والوطنية والاجتماع •

يقول أحمد أمين : « لم يجدد حافظ في بحور الشعر وأوزانه ، ولم يجدد في أسلوبه وبيانه ولا تفكيره وخياله ، إنما جدد في شيء هو فوق ذلك كله جدد في موضوعه وأغراضه » ^(٩) ، ويقول :

« ميزه حافظ الكبرى أنه تبلورت في شعره آمال أمته أولا وآمال الشعب العربي ثانيا » ^(١٠) •

(٨) ممن ذهب الى هذا الدكتور عبد الرحمن عثمان في كتابه في الأدب المعاصر في الفصل الذي كتبه عن حافظ •

(٩) مقدمة ديوان حافظ ص ٢٧ •

(١٠) المرجع نفسه ص ٢٧ •

ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا
 بخير بقاع الأرض خير رميات
 تباركت هذا الدين دين محمد أيقرك في الدنيا بغير حماة ؟
 تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناه الدين للغمزات
 زرعت لنا زرا فأخرج شغلها ونبت ولما نجت التمرات .. الخ
 ٢ - وقال في مظاهرة نسائية قامت بها السيدات في الثورة (١٣)
 الوطنية في سنة ١٩١٩ م :
 خرج الغواني يحتجب
 من ورجت أرقب جمعته
 فاذا بهن تخذن من
 سود الثياب شعورهنه
 فطلعن مثل كواكب
 يسطن في وسط الدجنة
 وأخذن يجتزن الطريق
 ق ودار سبعد قصدهه
 يمشين في كف الوقا
 ر وقد أبن شعورهنه
 واذا بجيش مقبل
 والخيل مطلقه الأعنة
 واذا الجنود سيوفها
 قد صوبت لنحورهنه
 واذا المدافع والبنبا
 دق والصوارم والأدنة
 والخيل والفرسان قد
 ضربت نطاقها حولهنه
 والورد والريحان فسي
 ذاك النهار سلاحهنه
 فتطاحن الجيشان سا
 عات تشيب لها الأجنه
 فتضعض النسوان والنسوان ليس لهن منه
 ثم انهز من مشيتا
 ت الشمل نحو قصورهنه

(١٣) ديوانه ٢ / ٨٧ •

فليهنس الجيـش الفـخـو ر بنصره وبكسـره هـه . الخ

٣ - وله فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة المصرية^(١) وهى من شعره الاجتماعى قوله من قصيدة طويلة :

يامصر هل بعبد هذا اليأس متسرع
يجرى الرجاء به فى كل مضطرب

لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا
كأننا فيك لم نشهد ولم نعب

نبكى على بلد سبال النصار به
للموافدين وأهلوه على سغب

متى قرأه وقد باتت خزائنه
كنزا من العلم لا كنزا من الذهب

هذا هو العمل المبرور فاكتبوا
بالمال انا اكتبنا فيه بالأدب

٤ - ومن اجتماعياته قوله ينتقد المجتمع المصرى - على عهده -
من قصيدة^(٢) قالها فى زواج الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد »
نتتطف منها هذه الأبيات :

حطمت اليراع فلا تعجبنى وعفت البيان فلا تعنبنى
فما أنت يامصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب

(١) ديوان حافظ / ٢٦٥ وما بعدها .

(٢) ديوانه ٢٥٦/١ وما بعدها .

وكم فيك يامصر من كاتب
 (وكم ذا بمصر من المضحكات)
 أمور تمر وعيش يمر
 وشعب يفر من الصالحات
 وصحف تطن طنين الذباب
 وهذا يلوذ بقصر الأمير
 وهذا يلوذ بقصر السفير
 وهذا يصيح مع الصائحين
 فيا أمة ضاق عن وصفها
 تضيع الحقيقة ما بيننا
 ويهضم فينا الامام الحكيم
 على الشرق منى سلام الودود
 لقد كان خصبا بجذب الزمان
 أقال السـيراع ولم يكتب
 كما قال فيها (أبو الدليب)
 ونحن من اللهو في ملعب
 فرار السليم من الأجرب
 وأخبري تشن على الأفرج
 ويدعو الى ظله الأرحب
 ويطيب في ورده الأعذب
 على غير قصد ولا مأرب
 جنان المفوه والأخطب
 ويصلى البريء مع المذنب
 ويكرم فينا الجهول الغبي
 وان طأطأ الشرق للمغرب
 فأجذب في الزمن المخصب

٤ - من فصيدة « أيها النيل » (*) لشوقي

قال أمير الشعراء :

- ١ - من أى عهد فى القرى تتدفق
وبأى كف فى المداين تغدق ؟
- ٢ - ومن السماء نزلت أم فجرت من
علينا الجنان جـداولا تترقـرق ؟
- ٣ - وبأى عين أم بأية مزنة
أم أى طوفان تفيض وتفهق ؟
- ٤ - وبأى نول أنت ناسج بردة
للضفتين جـديدها لا يخلـسق ؟
- ٥ - تسود ديباجا اذا فارقتها
فاذا حضرت اخضوض الاسـتبرق
- ٦ - فى كل آونة تبدل صبغة
عجبا وأنت الصباغ المتـأنق
- ٧ - أنت الدهور عليك مهدك مترع
وحياضك الشرق الشـبيهة دفق

(*) الشوقيات ٢/٦٥ وما بعدها - المكتبة التجارية الكبرى
بالقاهرة •

(٣) فهق : فهق الاناء امتلا حتى كاد يقصب ، والمزنة فى البيت
هنا معناها : السحابة المظرة •

(٤) النول : خشبه الحائك ينسج عليها ، يخلق : يبلى •

(٥) الاستبرق : الحرير •

(٧) مترع : ممتلىء ، الشرق : الشرقى •

- ٨ - تسقى وتطعم لا اناؤك ضائق
بالواردين ولا خيوانك ينفق
- ٩ - والماء تسكبه فيسبك عسجدا
والأرض تغرقها فيحيها المغرق
- ١٠ - تعيي منابعك العقول ، ويستوى
متخبط في علمها ومحقق
- ١١ - أين الفراعنة الألى استذرى بهم
(عيسى) و (يوسف) و (الكليم) المصعق ؟
- ١٢ - الموردون الناس منهل حكمة
أفضى اليه الأنبياء ليستقوا
- ١٣ - الرافعون الى الضحى آباءهم
فالشمس أصلهم الموضىء المعرق
- ١٤ - وكأنما بين البلى وقبورهم
عهد على أن لا مساس وموتق
- ١٥ - فحجابهم تحت الثرى من هيبة
كحجابهم فوق الثرى لا يخرق
- ١٦ - بلغوا الحقيقة من حياة علمها
حجب مكثفة وسر مغالب

(٨) ينفق : يفنى ويقل •

(٩) العسجد . الذهب •

(١١) استذرى بفلان : اتجا اليه واستذرى بالشجرة : استظل بها •

(١٢) المنهل : المورد •

(١٣) المعرق : العريق فى النسب •

- ١٧ - وتبينوا معنى الوجود فلم يروا
دون الخلود سعادة تتحقق
- ١٨ - يبنون للدنيا كما تبنى لهم
خسرا غرابا البين فيها ينمق
- ١٩ - فقصورهم كوخ وبیت بداوة
وقبورهم صرح أشم وجوسق
- ٢٠ - رفعوا لها من جندك وصفائح
عمدا فكانت هائطا لا ينتق
- ٢١ - وابن هياكل قد علا الباني بها
بين الثريا والثرى تتنشق ؟
- ٢٢ - منها المشيد كالبروج وبعضها
كالطود مضجع « أشم منطق »
- ٢٣ - جدد كاول عهدا وحيالها
تتقادم الأرض الفضاء وتعتق
- ٢٤ - من كل ثقل كاهل الدنيا به
تعيب ، ووجه الأرض عنه ضيق
- ٢٥ - عال على باع البلى لا يهتدى
ما يعتلى منه وما يتسلق

-
- (١٩) الجوسق : القصر ♦
(٢٠) ينتق : يزعرع ♦
(٢١) تنشق : تنتظم ♦
(٢٢) منطق : مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه ♦
(٢٣) تعتق : من عنق الشيء قديم ♦

- ٢٦ - متمكن كالطود أصلا في الثرى
والفسر في حرم السماء محلق
- ٢٧ - هي من بناء الظلم الا أنه
يبيض وجهه الظلم منه ويشرق
- ٢٨ - لهم يرهق الأمم الملوك بمثلها
فخيرا لهم يبقى وذكرها يعبق
- ٢٩ - فتنت بشطيك العباد فلم يزل
قاص يحجهمها ودان يرمق
- ٣٠ - وتضوعت مسك الدهور كأنما
في كل ناحية بخور يحرق
- ٣١ - كم موكب تتخيل الدنيا به
يجلى كما تجلى النجوم وينسق !
- ٣٢ - (فرعون) فيه من الكتائب مقبل
كالسحب قرن الشمس منها مفتق
- ٣٣ - تمنو لعزته الوجوه ووجهه
للشمس في الآفاق عان مطرق
- ٣٤ - آبت من السيف البعيد جنوده
وأنتبه بالفتح السبعيد الأفق

(٣٢) مفتق : من ذنق قرن الشمس أصاب فتقا من السحاب
نبدأ منه *

(٣٤) الخيلق : الكتبية العظيمة *

- ٣٥ - ومنى الملوك مصفدين خدودهم
نعل لفرعون العظيم وغرق
- ٣٦ - مملوكة أعناقهم ليمينه
يأبى فيضرب أو يمن فيعتق
- ٢٧ - ونجبية بين الطفولة والصبا
عذراء تشربها القلوب وتعشق
- ٢ - كان الزفاف اليك غاية حظها
والحظ ان بلغ النهاية موبق
- ٣ - لافيت أعراسها ولافت مأتما
كالشيوخ ينعم بالفتاة وترهق
- ٤ - هي كل عام درة تلقى بلا
ثمن اليك وحرة لا تصدق
- ٤١ - حول تسائل فيه كل نجبية
سبقت اليك متى يحول فتلق ؟
- ٤٢ - والمجد عند الغنائات رغبة
يغنى كما يغنى الجمال ويعشق
- ٤٣ - ان زوجوك بهن فهي عقيدة
ومن العقائد ما يلب ويحمق

(٣٥) النمرق : الوسادة الصغيرة •

(٣٨) موبق : مهلك •

(٤٠) تصدق : من أصدق الرجل المرأة أى سمى لها صداقة •

(٤٣) يلب : صار لبيبا •

- ٤٤ - ما أجمل الايمان ! لولا ضلة
فى كل دين باللهــــــــــــداية تلصق
- ٤٥ - زفت الى ملك الملوك يحثها
دين ويدفعها هوى وتشوق
- ٤٦ - واربما حسدت عليك مكانها
ترب تمسح بالعروس وتصدق
- ٤٧ - مجلوة فى الفلك يحدو فلكها
بالشــــــــــــاطئين مزغرد ومصفق
- ٤٨ - فى مهرجان هزت الدنيا به
أعطافها واختال فيه المشرق
- ٤٩ - فرعون تحت لوائه وبناته
يجرى بهن على السفين الزورق
- ٥٠ - حتى اذا بلغت مواكبها المدى
وجرى لغايته القضاء الأسبق
- ٥١ - وكسا سماء المهرجان جباله
سيف المنية وهو صلت يبرق
- ٥٢ - وتاذنت فى اليم كل سفيينة
وانثال بالوادي الجموع وحدفوا
- ٥٣ - ألقى اليك بنفسها ونفيسها
وأنتك شبيقة حواها شقيق

(٥١) الصلت : السيف الثقيل الماضى •
(٥٢) انثال : انصب •

- ٥٤ - خلعت عليك حياءها وحياتها
أأعز من هذين شيء ينفق ؟
- ٥٥ - وإذا تنهى الحب وافق الفدى
فالروح فى باب الضحية أليق
- ٥٦ - أصل الحضارة فى صعيدك ثابت
ونباتها حسن عليك مخلق
- ٥٧ - ولدت ، فكنت المهد ، ثم ترعرعت
فأظلمها منك الحفى المشفق
- ٥٨ - ملأت ديارك حكمة ، مأثورها
فى الصخر والبردى الكريم منبق
- ٥٩ - وبنت بيوت العلم باذخة الذرى
يسمى لهن مغرب وشرق
- ٦٠ - واستحدثت ديناً فكان فضائلا
وبناء أخلاق يطول ويشفق
- ٦١ - مهد السبيل لكل دين بعده
كالمسك رياه بأخضرى تفتق
- ٦٢ - يدعو الى بر ويرفع صالحا
ويغاف ما هو للمروءة مخلق

(٥٦) مخلق : متطيب •

(٥٨) منبق : مسطر •

(٦٠) يشفق من شفق الجبل أى : ارتفع •

(٦١) تفتق : من فتق المسك بغيره : استخرج رائحته بشيء

يدخله عليه •

حول القصيدة :

- ١ -

الأفكار والمعاني :

قصيدة أيها النيل هذه قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين ومائة بيت (١٥٣ بيتا) أهداها شوقي الى الأستاذ/مرجليوت مدرس اللغة العربية في جامعة أكسفورد وقدم لها بمقدمة جاء فيها :

« أيها الأستاذ الكريم : تذكرت « أثينا » مدينة الحكمة في الدهور الخالية ، وأياما غزمتها على رسومها العافية ، وأدملتها البالية ، فكأنني أنظر الى المؤتمر ، علماءه المهالة وأنت القمر ، أو زمر الحجيج وأنت الزمر ، وأرى الملوك ذي الحفر ، بنيانهم مصدوع الجدر ، وبيانهم نور البشر ، نزلنا بهم فاذا الدول خبر ، واذا الممالك أثر ، والطول نسغل الفؤاد والبصر الى أن قال :

الشعر كالأحلام : دخل على المسرور الكرى . وتكثر على المحزون في السرى .

وقريحة الشاعر كعين صاحب الأيام ، عندها للحن عبرة ، وللسرور عبرة .

وهذه — أيها الأستاذ الكريم — كلمة قيلت والهموم سارية والأقدار بالمخاوف جارية ، والدموع متبارية ، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية ، نت منها تغنيا بمحاسن الماضي ، وتقريدا لماثر الآباء ، وقضاء لحق « النيل » الأسعد الأمجد . ونسبتها اليك عرفانا لفضلك على لغة العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة في احياء علومها ونشر آدابها ، والقائنها كلما طلعت الشمس خلف الضباب ، دروسا نافعة على أنبل

شباب العصر في أعظم جامعات العالم ، فلعلها تقع اليك : فتتذكر على
النوى تلك الأيام ، ونتنادم من بعد على بساط الأدب والكلام ،
ونسأل الله أن يحقن الدماء ويقيم جدار السلام » (١) •

ويسنين من هذه المقدمة التي مهد بها شوقي لتقصيده هذه
المباعت الأساسية على نظمها وهو :

١ — الأسادة بمحاسن الماضي من تاريخ أمته ، ذلك التاريخ
الذي سجل أمجاد مصر والمصريين منذ العصور الخوالي ، والذي يشهد
على تفوق المصريين في الحضارة الحضارية جذورها في أعماق التاريخ •

٢ — التغني بمآثر الآباء التي تمثلت فيما خلفوه للعالم من فن
وفكر وثقافة ، وقد بدا ذلك واضحا في آثارهم المخالدة الرائعة التي
تدل على نبوغهم وتفوقهم منذ القدم •

٣ — قضاء حق « النيل » ، ذلك النهر الخالد الذي نمت الحياة
وترعرعت في واديه ووفاء الشاعر غير المحدود له ، حيث أشاد بآثاره
ونوه بالحضارة التي كان النيل عاملا عليها ونافعا فيها من روجه حتى
استقرت حياته وازدهرت في ظلاله وبين أودتيه •

وتعالج قصيدة « النيل » مجموعة من الأفكار التي نبعت من
أعماق شوقي ، والتي تدل على تأصل روح الوطنية فيه ، وتبين مدى
اعتزاز أمير الشعراء بوطنه وحضارته وآثاره •

ويمكننا أن نبرز هذه الأفكار على هذا النحو :

أولا — بدأ شوقي قصيدته بالحديث إلى النيل ، ومخاطبته خطابا
يدل على إعجاب شوقي بتدفق النيل وعطائه ، متسائلا في دهشة
وإعجاب — هل نزلت من السماء مأوك فأحييت موات الأرض وبعثت

(١) الشوقيات ٢/٦٤ ، ٦٥ •

ففيها الحياة ؟ ! أم فجرت من الجنان العالية فترقرقت جداولك واسابت
مياهلك وتدفق نميرك !!

وهكذا يمضى شوقى فى هذا التصوير البياني المعبر عن عظمة
الغيل وأثره وتأثيره *

يقول :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟
وبأى كف فى المداين تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من
عليها الجنان جداولاً تترقق ؟
وبأى عين أم بأية مزرنة
أم أى طوفان تفيض وتفهم .. الخ *

ويمضى شوقى فى حديثه عن النيل ومخاطبته إياه ، فيصور أنه
فى حياة الناس وتأثيره فى الأرض بما ينبت فيها من زرع وما يحيا عليها
من كائنات على مر العصور دون أن يجف ماؤه أو يقل عطاؤه ..

وقد تناول شوقى هذه الفكرة فى أبيات طويلة من قصيدته اكتفينا
منها بعشرة أبيات هنا * وتدور كلها حول هذه المعانى التى أوجزنا فيها
القول آنفا *

ثانياً — انتقل شوقى الى الحديث عن فكرة ثانية وثيقة الارتباط
بالفكرة الأولى ، فالنيل بمائه الوفير وواديه الحى قد استقر على أرضه
فراعنة مصر الذين بسطوا نفوذهم على هذه الأرض وراحوا يسيّدون
فيها بناءهم ويبنون فيها حضارتهم ، حتى التجأ الى هذه الأرض
الآمنة المستقرة بعض من أنبياء الله ورسله ، بفضل ما أنعم الله عليها
من حضارة وما أفاء على ربوعها من بر وخير *

وهؤلاء الفراغة قد أوتوا مناهل الحكمة التي أفضى اليها الأنبياء
ليستقوا منها ، وهم ذوو أصول عالية وأنساب عريقة ، لا تبلى قبورهم
إذا دفنوا في الثرى ، لأن هذه القبور مهيبة تحتضن جسوم قوم
ذوى هبة ووفار ، كما كانوا في حياتهم كذلك ، وهم قد عرفوا الحكمة
وبلغوا الحقيقة وتبينوا معنى الوجود فلم يروا دون الخلود سعادة
يمكن أن تتحقق ، ولذا آمنوا بأن الدنيا زائلة وأن الوجود الحقيقي
يتمثل في الخلود بعد هذه الحياة الفانية ، ومن ثم كانت قبورهم
التي ابتنوها لأنفسهم في هذه الدنيا عبارة عن أكواخ متواضعة
وبيوت بداوة لا فن فيها ولا عناية بها .

أما قبورهم فلقد شيدها صروحا شما وقصورا عظيمة ورفعوا
لها من الجنادل والصفائح وأنفقوا فيها من الثن والعلم ما ينهض أن
يكون دليلا قويا على تفوقهم في البناء والعمار والندت والنقش
والرسم على مر العصور .

ولقد عالج شوقي هذه الفكرة في أبيات منها قوله :

أين الفراغة الألى استذرى بهم
(عيسى) و (يوسف) و (الكليم) المصعق
الموردون الناس منك حكمة
أفضى اليه الأنبياء ليستقوا

حتى قوله :

فقصورهم كوخ وبيت بداوة وقبورهم صرح أشم وجوسق
رفعوا لها من جندل وصفائح عمدا فكانت حائطا لا ينفق

— وهى الأبيات من الحادى عشر الى العشرين — من جملة الأبيات
المختارة من القصيدة — .

ثالثا - الوقوف على الآثار التي شيدها المصريون وسمكوا بنائها حتى شارفت النجوم ، وهذه الآثار بعضها كالبروج العالية المشيدة ، وبعضها كالجبال الشامخ المراسخة ، وهي جديدة كلها كأنها بنيت اليوم ، لم ينل منها تقادم العهد •

ويعصور شوقي عظمة تلك الآثار وضخامتها بأن الأرض تنوء بحملها ويكاد فضاؤها لا يسعها ، كما يحسور عزتها وتأببها على البلى بأنه عاجز عن تسليقها والصعود إليها ليهدمها • وذلك في الأبيات التي تبدأ بقوله :

ولن هياكل قد علا الباني بها بين الثريا والثرى تتساق
منها المشيد كالبروج وبعضها كالطود مضطجع أثم منطق
جدد كأول عهدا وحيالها تتقدم الأرض الفضاء وتعتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به تعب ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى ما يعتلى منه وما يتساق
هتمكن كالطود أصلا في الثرى والفرع في حرم السماء معلق

ثم يمضي شوقي في اتمام هذه الفكرة فيذكر أن هذه الأبنية المتينة من بناء الظلم لأن الفراعنة أثقلوا كواهل البنائين بهذا العمل الشاق المضني ، بيد أن هذا البناء العملاق الذي هو فخار كل مصرى ورمز لحضارة مصر وتحضرها منذ القدم ، يبيض منه وجه ظلم هؤلاء الافراعنة ويسرق ، لأن قيمته خالدة وتاريخه وضيء أصيل •

وقد صور شوقي هذه الفكرة في الأبيات من الحادى والعشرين حتى الثامن والعشرين من الأبيات المختارة ، وفي البيتين (التاسع والعشرين والثلاثين) حديث عن النيل ، وكيف فتن العباد بشاطئيه وما ضما ، سواء في ذلك القاصي الذي قصد النيل للتعرف عليه والتعلى بخيراته ، والدانى الذي يرمق هذين الشاطئين بأعجاب ويرنو إليهما

ففى سرور وغبطة • وقد فاح شذى النيل على مر الدهور فى كل ناحية
وتضوعت به الأرض وضمخ به الجو وانتشر ريحه الطيب فى كل حدب ،
كأنه بخور يحرق وتفوح منه أريج معطر •

رابعاً — عرض شوقى لتاريخ النيل وما كان يجرى على واديه
من أحداث ، عرضاً ينم عن ثقافة شوقى وهضمه واستيعابه لهذا
التاريخ ، ثم استلهمه إياه فى تمجيد حضارة مصر والمصريين فى
شعر خصب أصيل •

فأشاد بموكب فرعون وقد عاد من غزاته منتصراً ، وصور جلال
هذا الموكب ورهبته وهيئته ، وقد أقبل فرعون فى هذا الموكب ،
فتخشع له الأبصار ويخشع بصره للشمس الهتة وأصله ، ومن خاف
ركبه ملوك أسرى أذلة ان شاء قتلهم وان شاء أعنتهم • وذلك فى قوله
فى الأبيات من الحادى والثلاثين الى السادس والثلاثين :

كم موكب تتخيل الدنيا به	يجلى لما تجلى النجوم وينسق
(فرعون) فيه من الكتائب مقبل	كالسحب قرن الشمس منها مفتق
تغنوا لعزته الوجوه ووجهه	للشمس فى الآفاق عان مدارق
آبت من السفر البعيد جنوده	وأنته بالفتح السعيد العيلق
ومشى الملوك مصفدين ددودهم	نعل لفرعون العظيم وعرق
مملوكة أعناقهم ليمينه	يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

ثم صور شوقى فى أسهاب عقيدة راجت عند قدماء المصريين هى
زفاف النيل كل عام الى عروس عذراء جميلة فاتنة ، كان يعدها للنيل
المصريون التدامى ومليكمهم ، وكانت هذه العروس ترى أن زفافها
الى النيل غاية لا تدانيها غاية ، ومطمح تشرئب اليه الأعناق وتهفو
اليه النفوس ، الى درجة أن الغانية كانت تحسد تربها التى نالت هذا

الشرف ، وكان الفتيات يرقبن مرور الحول على واحدة منهن تحظى بهذا الزوج الظافر السعيد ، وكان يدفعها الى هذه الأمنية الحلوة عقيدة تأصلت في أعماقها وهوى تمكن من نفسها وتشوق الى هذا الشرف الرفيع — فيها حسبن —

وهذا الزواج الذى كان يتمثل في اللقاء الفتاة المجلوة الجميلة المزيّنة في جوف النيل ، كان يعد له مهرجان ضخم يحضره فرعون وبنائه ، وتجري السفن والزوارق على صفحات النيل ، وتختال فيه المراكب ، وتهب الجموع الحاشدة لمشاهدة هذا العرس الذى تتم مراسمه بأن تلقى هذه النجبية بنفسها ونفيسها في النيل مشتاقة هائمة ، وقد خلعت على النيل حياءها وحياتها ، وليس هناك أعز من هذين عند الفتاة العذراء التى تجود بهما على من أحبت وقد عالج شوقى هذا المشهد في الأبيات من السابع والثلاثين حتى الخامس والخمسين • وبدأها بقوله :

ونجبية بين الطفولة والصبا عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف اليك عاية حظها والى حظ ان بلغ النهاية موبق
لافت أعراسا ولافت مأتما كالشيخ ينعم بالفتاة وترهق
فى كل عام درة تلتقى بلا ثمن اليك وحرّة لا تصدق ••• الخ •

ثامسا : عاود شوقى مخاطبة النيل فذكر أن أصل الحضارة قد استقر في صعيده ، وأن مولدها كان على أرضه ، وأن النيل كان مهدا لهذه الحضارة منذ ميلادها ، ومستقرا لها في أطوار نموها وازدهارها ، وعنوان هذه الحضارة ما سطر من حكم على الصخر ونبات البردى التى يعزو أصلها الى قدماء المصريين ، وما شيد من بيوت العلم التى ازدهرت فيها العلوم قديما وتتلّمذ عليها علماء المشرق والغرب وأمها طلاب العلم من كل حدب وصوب •

ومن مظاهر هذه الحضارة الدين الذى استحدثه قدماء المصريين
والذى يدعو الى البر ويرفع من صالح الأعمال ، ويعاف ما ينافى
المروءة ، وذلك الدين المستحدث قد مهد السبيل لكل دين أتى بعده ،
حيث أنتت تعاليم هذه الأديان فى بعضها غير منافية لتعاليم الدين الذى
استحدثت فى وادى النيل •

وقد صور شوقى هذه المعانى فى أبياته من : السادس والخمسين
حتى الثمانى والستين من جملة الأبيات المختارة من القصيدة والتي
يقول فيها :

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت	ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت	فأظلمها منك الحفى المشفق
ملأت ديارك حكمة ماثورها	فى الصخر والبردى الكريم منبق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى	يسعى لهن مغرب وشرق
واستحدثت دينا فكان فضائلا	وبناء أخلاق يطول وينسق
مهد السبيل لكل دين بعده	كالمسك رياه بأخرى تفتق
يدعو الى بر ويرفع سالدا	ويعاف ما هو للمروءة مخلق

هذه هى الأفكار الأساسية لمجموعة الأبيات التى اخترناها من
قصيدة « النيل » لشوقى • وتحت كل فكرة تتدرج طائفة من المعانى
التي تحتاج الى روية لتدبرها وفهمها والوقوف عليها ، لأن شوقى قد نوه
بالتاريخ القديم لمصر فى ثنايا هذه القصيدة ، ولا يمكن لمن يجهل هذا
التاريخ أن يستوعب أبيات القصيدة كما ينبغي ، وهذه المعانى تعكس
ثقافة شوقى فى هذا الباب ، حيث قرأ التاريخ القديم لمصر ، وتعمق
فهمه ، واستخلص منه المواعظ والعبر ، كما استلهم أحداثه فى كثير
من شعره الغنائى والمبرحى ، كقصائده الغنائية — أبو الهول ،

توت عنخ آمون ، الأهرام وغيرها — كما فعل في مسرحيته — مصرع
كليوباترا وقمبيز (٢) •

ولا أدل على احتفاء شوقي بالتاريخ المصري القديم والمآله
بأحداثه واعتزازه بشعره التاريخي من قوله :

وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يحسن مجده قومه صان عرسا •

وعلى هذا يمكننا أن نقول : ان المعاني في القصيدة ليست معاني
سطحية أو عامة ، ولكنها معان عميقة خصبة ، ومع هذا العمق
وهذه الخصوصية فهي بعيدة عن التكرار المألوف وقد سلمت من الغموض
والالتواء والفساد ، ويمكن الوقوف عليها واستبطانها لمن وقع على
التاريخ القديم لمصر — كما قلنا •

- ٢ -

القيم الفنية في القصيدة :

لقد توافرت في قصيدة شوقي هذه عناصر فنية عديدة تسلكها
في عداد الشعر الحي النابض بالحركة والحيوية ، والمتنوع بالجمال
والفن •

ومن هذه العناصر :

- (أ) العاطفة •
- (ب) الخيال الشعري •
- (ج) الموسيقى الشعرية •
- (د) الوحدة الفنية •

(٢) راجع كتابنا — الآثار المصرية في شعر شوقي — نشر دار
الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٦ •

وسوف نلقى الضوء على كل عنصر من هذه العناصر على حدة في
منهج تحليلي مفيد :

(أ) العاطفة :

يمكننا على ضوء دراستنا لهذه القصيدة وغيرها من شعر شوقي
الوطني ، أن نعد أمير الشعراء على رأس قائمة شعراء الوطنية الكبار ،
الذين نافحوا عن وطنهم وصوروا مآثره وأمجاده وحضارته ، وهتفوا
بحريته ، وهاجموا خصومه .

ولقد كانت وطنية شوقي سببا في نفيه من مصر — كما كانت سببا
في نفي غيره كذلك من شعراء الوطنية ، وقد أيقنت انجلترا خطورة
شعر شوقي في شحن مشاعر المصريين وتأييدهم عليها ، ومن ثم نفتته
الى أسبانيا — كما ذكرنا في الحديث عنه —

وهل أدل على وطنيته من قوله في بيته الذائع :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى ؟

وهل أدل على وطنيته كذلك من قصيدته التى نحن بصدد تحليلها
ودراستها ، والتى أشاد فيها بانيل — هبة الله فى أرضه — ونوه فيها
بحضارة المصريين وتقديرهم فى البناء والمعمار والعلم والدين ، وفاخر
مياها بقوة ملوك مصر القدامى وفراعينهم الذين ذلت لهم رؤوس أعدائهم
فى حروبهم الظافرة المنتصرة ، وغير ذلك من المعانى التى عالجها شوقي
وعرفنا بها سابقا ! ؟

وهذه المعانى الوطنية لا تتبع الا من وجدان صادق وعاطفة مشبوبة
متقدة .

فالعاطفة فى هذه القصيدة صادقة حارة غير متكلفة ، لأنها نبعت
من وجدان أحس صادقا بوطنه ، وترجم هذا الاحساس فى شعر صادق
قوى مؤثر .

والعاطفة فى هذه القصيدة من نوع العواطف المسندة التى حافظت على قوتها وحرارتها فلم تفتت ولم تبرد فى أى موطن من مواطن القصيدة ، — على طولها —

ولقد بدا أثر هذه القوة فى الألفاظ التى عبرت والأجيلة التى صورت ، حيث انتقى الشاعر من تلك وألف من هذه ما يقوى على أن ينقل مشاعره ويترجم احساسه ويصور عاطفته •

ويمكنك أن تتمثل هذا فى أبيات القصيدة كلها — أما نحن فسوف نكتفى بمطالع القصيدة لنستنبط منك ، أثر العاطفة فى انتقاء العبارة وتأليف الصورة الشعرية •

يقول شوقي :

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرب من عليا الجنان جداولاً تترقرق ؟
وبأى عين أم بآية مزنة أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج برده للمصفتين جديدها لا يخلق •

فانظر متأملاً تلك الألفاظ التى اختارها شوقي للتعبير عن غزارة النيل ووفرة مياهه • ثم تأمل الأثر الفنى الذى أحدثه التعبير بالفعل المضارع الذى يدل على التجدد والاستمرار ، ثم انظر تلك الألفاظ المنتقاة التى هى من لوازم الماء دون غيره •

— تتدفق — تغدق — فجرت — جداول — تترقرق — عين مزنة — طوفان — تفيض — تفهق •

وقف أمام البيت المراسع وتأمل ما فيه من ألفاظ هى من لوازم الكساء دون غيره •

— نول — ناسج — برده — جديد — يخلق —

وهكذا كان شوقي بارعا في انتخاب الألفاظ المعبرة من عاطفته
الجياشة المتدفقة .

ثم قف أمام هذه الصورة الشعرية التي كونها خيال شوقي الحبيب
والتي تجسد عطاء النيل وتشخص أثره والتي رسمها شوقي على هذا
النصو :

يقول شوقي بعد بيته السابق :

سود ديباججا اذا فارقتها
فاذا حضرت اخضر وضر الاسـ
في كل آونة تبـدل صبغة
عجبا وانت الصابغ المتـ

فانت، أمام صورة فيها نول ينسج برودة جميلة مقينة ، وادا فارقتها
النيل اسودت ، وادا حضر لنزيينها وتجميلها ونقشها صارت حريرا
أحضر ، وهكذا يمضي النيل في كل آونة يبدل صبغة بصبغة، ويبدل لونا
مثل ان احمر صابغ مئائق وفنان ماهر .

ولا يخفى اسر عاطفة شوقي الوطنية ووفائه للنيل — سبب الحياة
ووسيلتها في مصر — في افقتان التساعر في هذه الصورة المجسمة
للمشاعر المشخصة للحسن الوطني النبيل ، وغير خاف ما تدل عليه
هذه الصورة من أثر النيل في تربة مصر وتنوع زروعها ونمارها بما
نحمله هذه الزروع والثمار من ألوان مختلفة .

(ب) الخيال الشعري :

افتن شوقي في تأليف الصور الشعرية افتنانا عظيمها ، لا سيما
في بعض الاغراض الشعرية ومنها ذلك اللون الشعري المعبر عن حضارة
مصر ووصف، آثارها ، وقد أتيح لأمبر الشعراء ما لم يتح لغيره من كثير

من الشعراء الذين عاصروه من ثقافة ومشاطدة ورحلة ، هذا الى جانب طبع أصيل وملكة طبيعة ، وخيال حصب محلق ، مما جعله قادرا على الافتتان فى :تأليف الصور الشعرية ، المجسمة لمعانى تجربته وأفكارها تجسيما مصورا حيا ، معبرا عن أبعاد التجربة تعبيرا أدبيا مؤثرا .

ولقد أعانته خياله الخصب الذى غذته رواغد عديدة — كما ذكرنا سابقا — بمد لا ينضب من التخيل والتصوير ، وسبيله فى ذلك الجمع بين التشابيه والاستعارات والجازات، التى ألفها القدامى وبين مقدرته الفذة فى انتزاع الأطراف التى تبدو متنافرة ، والتأليف بينها فى مهارة تظهر الصورة من خلالها وعليها ملامح الجدة والابتكار يقول :
« كان شوقي يعرف كيف يجسم الصورة وكيف يحشد جزئياتها وعناصرها ، فاذا هى تتحول الى اوحة كبيرة كهذه اللوحات التى نراها فى معارض الرسامين ^(٣) » .

وقصيدة نسوقى التى بين أيدينا مليئة بالصور الشعرية — الجزئية والكيه — تلمسها فى بيت واحد أو فى مجموعة من الأبيات .

ففى مطلع القصيدة :

من أى عهد فى القبرى تتدفق
وبأى كف فى المدائن تغدق

تطالعك هذه الصورة الجزئية المعبرة عن معناها فى تجسيم .

— تدفق الماء من مكان منحدر ، وهذه تعطيك مدى غزارة ماء النيل فى انسكابه وجريانه وتدفقه .

— كما نطالعك هذه الصورة الجزئية كذلك :

كف مبسوطه تعطى فى سذاء وغدق . وهذا حال النيل المستفهم عنه من الشاعر فى قوله :

(٣) شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٧ د/شوقي ضيف .

وبأى كلف فى المدائن تغدق ؟

والتصوير الذى اشتمل عليه هذا البيت والذى ألفه خيال سوقى
الرحب ، أن تدفق النيل فى القرى منذ عهد بعيد ، لأن تاريخ القرى
التي قامت على ضفاف النيل وواديه تاريخ قديم خسرب جذوره فى
أعماق التاريخ ، كما أن عطاء النيل لا ينفد وغدقه لا ينقطع ، وهذا مثار
اعجاب الشاعر فى تساؤله للنيل الذى تخيله شخصا ينجيه ويفضى
إليه بأعجابه .

وهذه الصورة التي تضمنها البيت تعطيك المعنى مجسما مشخصا
وكانه ماثل أمامك تماما .

— ثم تأمل هذه الصورة الكلية القوية التي جسمت عزة المنتصر
وشموخه وشممه ، كما شخصت ذل المهزوم المنكسر وخضوعه ، فى
هذه الأبيات التي صور فيها شرقى موزب فرعون الجائل المنسوق وإشراقه
بين الصفوة والكثائب ، كالشمس تسفر فى دجنة السحاب فتخشع
أرويته الأبصار ، وقد تبعه ماواك أسرى أذلة مصفدين خاضعين لأمر
فرعون نازلين على حكمه فيهم .

يقول شوقي :

كم موكب تغشبايل الدفينا به
يجلى كما تجلى النجوم وينسق
(فرعون) فيه من الكثائب مقبيل
كالنجم قرن الشمس منها مفتق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه
للشمس على الآفاق عان مطرق
أبت من السمر البعيد جنوده
وأنته بالفتح السعيد الشيلق

ومشى الملوك مصنفدين خـدودهم
 نعل لفرعون العظيم وغـرق
 مملوكة أعـناقهم ليمينه
 يأبى فيضرب أو يمين شيعـتـه
 فشوقى فى هذه الأبيات يبايل بموكب فرعون وقد عاد منتصرا .
 من حربـه مع أعدائه ، وقد برع شوقى فى تصوير موكب فرعون وما أحيط
 به من جلال وما حفه من رهبة وهيبه ، ثم تصوير فرعون وقد أقبل
 فى هذا الموكب ، فتخشع له الأبصار وتغنو لغزته الوجوه ويخشع
 بصره الشمس مطرقا لآلهته وأصله ، ومن خلف ركبـه ملوك اسرى
 أدله ، ان شاء قتلهم وان شاء اعتقهم .

— ثم انظر مجموعة هذه الصور الجزئية ، التى نألفت منها صورة
 كلية للمهرجان السنوى الذى كان يقام بمناسبة رواف حروس النيل
 اليه كل عام ، وما اتسمت به هذه الصورة من جمال وفن — وذلك
 فى قول شوقى :

مجلوة فى الشباك يحدو فلكها
 بالشاطئين مزغبرد ومصـفق
 فى مهرجان هزت الدنيا به
 أعطافها واختال فيه المـرق
 فرعون تحت لوائيه وبنـاته
 يجـرى بهن على السفين السـزورق
 حتى اذا بلغت مواكبها المـدى
 وجـرى القضاء الأسـبق
 وكسا سماء المهرجان جـلالة
 سيف الزينة وهو صلت يـمـرق

وتلفتت في اليم كل ســــــــــــة فينة
واشغال بالـــــــــــــوادي الجموع وحمدقوا

أَلَقْتُ إِلَيْكَ بِنَفْسِي وَنَفْسِي
وَأَتَيْتُكَ شَيْئًا حَوَاهِي شَيْئًا

خلعت عليك حياءها وحبيباتها
أعز من هذين شي" ينبغي فوق !

— فانتظر الى تلك العروس المجلوة التي حواها الفلك في النيل ،
والناس يشاهدونه ما بين مزغرد ومصفق تعبيراً عن البهجة التي هي من
لوازم الأعراس .

— وأنظر الى هذا المهرجان الفخم الذى احتشد فيه القوم وطربت له الدنيا واختال فيه المشرق ، وفرعون تحت لواء هذا المهرجان يحتفل مع الناس بهذه المناسبة الجليلة يشاركه بفنانه اللائى ركبى الزورق فى النيل وقد جرى بهم على السفن •

— ثم تأمل هذا الجلال الذى يحف بالمهرجان ويكسو سماءه ، وهذه السفن التى تافقت لتشهد ساعة النقاء العروس فى النيل ، وتلك الجموع التى انشأت بالوادي للعرض ذاته ، حتى اذا بلغ عز ' بلاء مداه ' قامت العروس المجلوة المحتفل بزفانها بألقاء نفسها فى النيل ، وهى فى نسوق وتلهف لأن تضمها أحضانها وأن تحظى برضاه ، وقد خلعت عليه أعز ما تنفقه الفتاة وتخلعه وهو حياؤها وحياتها .

وهذه الصور المتأخية تعطيك صورة كلية لهذا المشهد المثير ، الذى يطالعك فيه اللون والحركة والسكون وغيرها مما يشكل أجزاء الصورة ويجمع بين شئتيها .

وهكذا نلاحظ في القصيدة صور عديدة تدل على خيال شوقي
البارع وقدرته على تأليف الصور والتفنن في رسمها *

وعنصر التصوير الشعري من العناصر التي تفوق فيها شوقي
تفوقا باهرا . وكان موضع اشادة من النقاد المنصفين (٤) أما من اعتسف
في نقد شوقي وتحامل عليه فقد رأى أن صور شوقي كانت صورا
اغطية لا رحيد لها من الشعور (٥) ونرى أن صور شوقي في شعره تستمد
قيمتها من أنها توحى بالقيم الشعورية التي تكمن خلف يمينها التعبيرية
والجمالية .

(ج) الموسيقى الشعرية :

ومن العناصر الشعرية التي برع فيها شوقي في شعره كله عنصر
الموسيقى الشعرية ، وهو عنصر وثيق الارتباط بالصورة الشعرية التي
تفوق فيها شوقي — كما ذكرنا سابقا .

فموسيقى شوقي في شعره موسيقى عذبة رائعة صافية ، برع
شوقي في صياغتها وتأليفها براعة نادرة ، بذ فيها أقرانه ، وتنفوق
بها على معاصريه .

فلقد انتقى أمير الشعراء من الألفاظ أجملها وقعا وأقواها دلالة
وأعذبها جرسا ، وأكثرها تعبيرا عن تأليف اللحن الذي يحرك التسجن ،
والنغم الذي يثير كوامن الذكرى .

وقد ساعد شوقي على ذلك حسه الموسيقي الفطري ، الذي كان
يألف الأنغام العذبة ويتذوقها ، ويؤلف بين الألفاظ وينسق الصور ويوائم
بينها ، حتى يؤلف لحننا رائعا تطرب له الأسماع وتهتز منه العواطف ،
وهذه السمة في شعر شوقي جلته طيعا للتأحين والعنباء ،
فشجا به كبار مشاهير الغناء في عصرنا هذا .

(٤) راجع : شوقي شاعر العصر الحديث د/ شوقي ضيف .

(٥) راجع . الديوان للعقاد — في نقد شوقي —

وراجع : النقد الأدبي لسيد قطيب ص ٣١ .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « •• ولا أبالغ إذا قلت : اننى لا أستمع الى قصيدة دلوية لشوقي حتى أخال كأننى أستمع حقاً الى « سمفونية » فموسيقاه تتضخم فى أذنى وأشعر كأنها تتضاعف ، وكان مجاميع من مهرة العازفين يشتركون فى اخراجها وفى ايقاع نغماتها ، ولا أرتاب فى أن ذلك يرجع الى ضبطه البارع الآلات الفاظه ودبذباتها الصوتية ، وليست المسألة مسألة مذاق أو مهارة فحسب ، بل هى أبعد من ذلك غورا • هى نبوع والهام واحساس عبقري بالبناء الصوتي للشعر •

وهذه البروعة فى الموسيقى تقتزن بحلاوة وعذوبة لا تعرف فى عصرنا لغير شوقي ، وربما كانت تلك آيته الكبرى فى صناعته ، فانت مهما اختلفت معه فى تقدير شعره - لا تسمعه حتى ترهف له أذنك ، وحتى تشعر كأنما يحدث فيها ثقباً ، هى ثقب الصوت الصافي الذى تهدر به المياه بين الصخور ، والصوت يعلو تارة فيشبه زئير البحار تهيج ، وينخفض تارة فيشبه قطرات الفضة التى تسقط من مجاذيف الزوارق وهى تجرى سابحة على صفحات النيل » (٦) •

وجمال الموسيقى الشعرية فى قصيدة — النيل — موضوع دراستنا — نابع من انتقاء ألفاظها بما تحمله كل لفظة من جرس خاص ودلالة صوتية معينة تسير الغرض وتعين على التعبير عنه ، كما تتأتى هذه الموسيقى من جمال الصور الشعرية ومهارة شوقي فى تأليفها ، هذا الى تناسق الشعور والملاعمة بين الأفكار التى تناولتها القصيدة — وهذه هى الموسيقى الداخلية للنص الشعرى • كما أن هناك موسيقى خارجية للقصيدة تمثلت فى وحدة وزنها حيث بنيت القصيدة كلها على وزن البحر الكامل — بما ! من جمال موسيقى وايقاع رائع ، وأجزاؤه هى :

متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن

(٦) شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٤ •

وهو من البحور الشعرية التي استعملها العرب كثيرا في شعرهم
لنهوضه بالتعبير عن أغراض تنقي • كما تمثلت هذه الموسيقى في وحدة
القافية في جميع أبيانها • وروى هذه القافية هو حرف — القاف —
المضمومة — كما رأيت — وليست فيها لفظة مجتلبه أو متكلفة أو محسوة
— كما رأيت —

وحتى تتمثل جمال هذه الموسيقى نكرر عليك أبياتا من المقطع الأخير
من الأبيات المختاره من القصيدة لتقف بنفسك على هذا الجمال في
الصياغة الموسيقية التي صاغها شوقي بفطرتة وحسه الموسيقي •
يقول شوقي :

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
ونباتها حسن عليك مخيلق

ولدت فـكت المهـد تم ترعـرعت
ناظـلها منـك الحـفـف في المشـفق

مـلات ديارك حكمة مأثورها
في الصخر والبردى الكريم منبق

وبنت بيوت السـلم باذخة الذرى
يسـمى لـهن مغرب ومشـرق

(د) الوحدة الفنية :

في قصيدة شوقي هذه تبدو الأفكار مرتبة منسجمة ، على الرغم
من تعددها جريا على مذهب الشعراء المحافظين في بناء قصائدهم
وتأليفها •

وهذه الأفكار التي تعددت في قصيدة شوقي وثيقة الارتباط قوية
الصلة مبرغم أن القصيدة عن « النيل » وجهلة وأثره في الحياة يبد أن
شاعرنا قد تراحمت عليه الخواطر وانتالت عليه المعاني فراح يتحدث

من تاريخ النيل في رحلته الطويلة مع الزمن وما صاحب هذه الرحلة من أحداث ، وما أوحى إليه هذا التاريخ الحافل من حضارة ومجد وانتصار وغيرها من الأُمجاد الماثلة في وجدان الشاعر والتي جرت كلها على ضفاف النيل وواديه •

ونحن لا نستطيع ان نقول : ان الوحدة الفنية في قصيدة شوقي هذه وحدة عضوية ، لعدم انطباق مقاييس تلك الوحدة على هذه القصيدة ، كما فهمها ونادى جمهرة من دعائها في النقد الحديث •

كما ان الوحدة هنا ليست وحدة موضوعية • لأن — شوقي — عالج في قصيدته هذه أكثر من غرض — كما ذكرنا — وان كانت هذه الأغراض متأخية يجمعها رباط شعوري قوى •

كما أننا لانذهب مذهب من تحامل على شوقي ورمى قصائده بتفكك أغراضها واضطراب أفكارها بفنائها • ولكننا نرى :

أن قصيدة شوقي هذه تميزت بالوحدة الفنية التي تمثلت في وحدة مشاعر شوقي وأحاسيسه ، وفي وحدة أفكارها وترباطها وانسجامها وتأخيها ، وفي ترباط الصور والعناصر الفنية التي عبرت عن عواطف الشاعر وصورت خالجات نفسه وشعوره وحسه •

ولا يخيرها على الإطلاق أن تقدم فيها بيتا على بيت أو فكرة على فكرة دون أن ينفرد عقدها أو يتخلل بناؤها — عى ما دعا إليه دعاة الوحدة العضوية — ، لأن تحقق هذه الوحدة في الشعر الغنائي ليس محل إجماع من النقاد ، كما أن اشتراط هذه الوحدة في الشعر الغنائي دعوة لا تخاو من تحكم أدى إليه احتكام بعض النقاد الى مناييس أجنبية تغاير نبي كثير من مفاهيمها طبيعة شعرنا ومقوماته •

دراسة عن — شوقي — ١٨٦٩ : ١٩٣٢

— ١ —

إذا كان البارودي قد راد جيل الشعراء المحافظين في المعود، بالشعر إلى عبور ازدهاره وقوته * فإن — شوقي — قد تمكن من أن يؤسس هذا البناء الذي وضع أساسه البارودي ، بل ويعلى دعائمه ويضيف إليه *

وذلك أن شوقيا كان مطبوعا على الشعر كما كان البارودي ، ولكنه كان أغزر ثقافة وأوفر طبعاً بفعل عوامل تكوين شاعريته ومكونات شخصيته الفنية التي وصفها الدكتور طه حسين بقوله : « طبيعة شوقي معقدة ينبثنا شوقي نفسه بتعقيدها ، فيها أثر من العرب ، وأثر من الترك وأثر من اليونان ، وأثر من الشركس ، التقت كل هذه الآثار وما فيها من الطبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقي ، فكانت هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو البائع أبعد الأشياء عن البساطة وازدهار السذاجة ، وهي بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة أشد ما يكون الخصب غنية كأوسع ما يكون الغنى ، ثم لم تكد هذه النفس المخصبة الغنية المتوقدة تتصل بالحياة حتى لقيت من حوادثها وتجاربها ، ومن كنوزها^١ وغناها ما يزيدها خصبا وثروة إلى ثروة *

كان شوقي يحسن التركية ، وكان متقناً للفرنسية ، قد برع فيها نطقاً وفهماً ، وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم ، فقرأ كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم *

وانضم إلى هذه العناصر التي كانت تتركب طبيعته عنصر جديد هو العنصر الفرنسي الذي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله ، وتمت العناصر الأخرى بالقراءة وبالحياة *

عاشر شوقي العرب في شعورهم وأدبهم فاعظم حظه من العربية ،
وعاشر الترك في حياته اليومية ، واتصل بهم اتساع اتصال فاعظم العصر
التركي فيه •

ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقي قدماء اليونان ، كما
عاشر قدماء العرب ، ولو قد فعل لأهدى الى مصر شاعرها الكامل (٦)
وهذا أوفى ما قيل في ثقافة شوقي الشعرية وروافدها ومكوناتها •

— ٢ —

شعره بين القديم والجديد :

حاكى شوقي وعارض في عدد غير قليل من قصائده كثيرا من الشعراء
العباسيين وغيرهم ممن قرأهم وتأثرهم في صدر حياته الأدبية ، ولكنه
كان عبقرى فني محاكاته ومعارضاته ، فلم يجيء شعره قالبا مخروبا
أو نسخة معادة — شأن المقلدين الجامدين — وإنما طوع صياغتهم
وأساليبهم ودورهم المترجمة عن خلجات ذاته ونبضات حسه وقضايا
وطنه وهتسكات أمته فجاء شعراء جديدا في مضامينه قويا في صياغته
وأسلوبه جمع فيه بين عذوبة البحرى ورقة ابن زيدون وحكمة المتنبي •

وربما كان شوقي في مرحلته الفنية الأولى — التي عاش فيها أسير
الترف والبذخ في حاشية الأمير عباس بالقصر — مكبل الفن ، منساقا
الى التقاليد في نطاق أغراض الشعر وأساليبه ، يمدح أو يحاصم ايرضى
الأمير ولى نعمته ، الذى حمله كثيرا على مديحه أو مديح من تعلق بهواه
من خلفاء العثمانيين •

(٢) حافظ وشوقي ص ١٧٣ وانظر في ترجمة حياته وفنه — مقدمة —
الشوقيات د/ محمد حسين هيكل وشوقي شاعر العصر الحديث د/ شوقي
ضيف والأدب العربى المعاصر فى مصر ص ٩٢ وما بعدها •

ومن ثم بعد شوقي بشعره في هذه المرحلة عن احساس الشعب ومشاعر الوطن وسخر منه لخدمة السادة وتملق السلاطين ، ولعل هذا اللون من شعره الذي حملته مالم ينفعل به الحس وتجيتس به النفس هو الذي جر عليه وابلامن سهام النقد التي صوبها اليه النقاد أو بعضهم — كما سري — واكن فن شوقي لم يستمر على هذا النمط المتملق — فقلقد كان من حسن حظ الشعر المعاصر أن نفتته انجلترا الى أسبانيا ، خوفا من شعره الذي كان يمكن أن يؤلب عليها مشاعر المصريين لو وجهه الى هذا المرض *

وبهذا وجهت انجلترا شعر شوقي وجهة فنية أخرى من حيث لا تدري ، ذلك أن الفترة التي مكثها شوقي في منفاه من ١٩١٥ — ١٩١٩ قد مكنته من الاطلاع على عالم جديد كما أتاحت له الاطلاع على مجد العرب المفقود في بلاد الأندلس ، وأن يقرأ تاريخ ماوك المسلمين الأقدمين هناك وأن يطالع بنفسه مفاصل الشعر العربي في الأندلس بألوانه الزاهية وبحوره المعردة وموسيقاه الشجية (٣)

وفي أسبانيا انطلق البابل المعرد يصدح بأعذب اللحن ويعزف على قيثارة الشعر العربي أرق النغم وأشجاء *

ومنذ ذلك الحين أخذ شوقي ينفذ غبار التقليد ويتخلص من قيود المجاملة وانطلق على طريق التجديد يخطو خطوات فسيحة ، وظهرت في شعره العواطف الإسلامية والوطنية والقومية التي بز فيها كثيرا من شعراء عصره . وانتزع منهم النافذة العريضة التي كانوا يطلون منها على الشعب في فترة كان ينمرغ فيها هو في كنف القصر وحاشيته بعيدا عن تضايي وطنه واحساس أمته ، ومنذ ذلك الحين أصبح شوقي شاعر الاسلام والوطنية وموضع اعجاب المنصفين من النقاد — عنى حد ما عبر به أحدهم قائلا :

(٣) بلابل من الشرق ص ٥٢ صالح جودت *

« وقد يكون السبب في تفضيل كثرتنا لشوقي أنه جمع بين الثقافتين العربية والعربية • واقتبس من الأخيرة خير ما فيها ، وأنه كان شاعر الوطنية الصادقة والشرق والاسلام ، فهو يعزف على قيثارة شدت لها الأوتار من قلوبنا ، فيعبر خير تعبير عن شعورنا وعما يجيش في نفوسنا » (٤) •

وحتى لا ندلق القول على عواهنه نسوق بعض نماذج من شعره الاسلامي الوطني والقومي ، الذي صور فيه عواطفه الجديدة السامية • المعمة بالمشاعر الاسلامية والوطنية والقومية •

١ - فمن شعره الاسلامي قوله من همزيته الطويلة في مديح خير الخلق ﷺ :

يامن له عز الشفاعة وحده	وهو المنزه ما له شفعاء
عرس القيامة أنت تحت لوائه	والحوض أنت حياله السقاء
تروى وتسقى الصالحين ثوابهم	والصالحات ذخائر وجزاء
المثل هذا ذقت في الدنيا الطوى	وانشيق من حلق عليك رداء ؟
لى في مديحك يا رسول عرائس	تيمن فيك وشفاقهن جلاء
هن الحسان فان قبلت نكرما	فمهورهن شفاعة حسناء
ما جئت بابك مادحاً بل داعياً	ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوك عن قومي الضعفاء لا زمة	فى مثلها يلقي عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم	ركبت هواها والقلوب هواء
متفككون فما تضم نفوسهم	ثقة ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهم نعيم باطل	ونعيم قسوم فى القيود بلاء
قسط الشعوب من الحضارة أنعم	تتري وقسط المسلمين نسقاء
أورثتهم غدر البلاد فضيعوا	فاليوم هم فى أرضهم غسرباء

(٤) وميض الأدب بين غيوم السياسة ص ١٦ ابراهيم دسوقي
أباظة •

ظلموا شريعتك التى نانا بها ما لم ينل فى (رومة) الفقهاء
مشت الحضارة فى سناها وأهتدى فى الدين والدنيا بها السعداء (٥)

٢ - ومن شعره الوطنى قصيدته فى مهاجمة - اللورد كرومر -
الذى كان قد استمرأ الطغيان فى مصر ولوث نهاية مدته بما ارتكبه فى
دنشواى من مصادث مروع يمثل نقطة سوداء فى صحيفة انجائنا ، وفيها
هاجمه بقوة هجوما صارخا ، وصور مشاعر المصريين جميعا ازاء هذا
" طاعية (٦) ومنها قوله :

أيامكم أم عهد اسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لا سائلا أبدا ولا مستقولا
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العيىء رجلا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبلا

ومنها قوله :

اليوم أخانت الوعود حكومة كنا نظن عهودها الانجيل
دخلت على حكم الوداد وعرعه مصرا فكانت كالسلاسل دخولا
هدمت معالمها وهدت ركائزها وأضاعت استقلالها المأمولا
قالو جلبت لنا الرفاهية والغنى جحدوا الاله وصدعه والنيل

قالوا :

وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد اسماعيل
فارحل بحفظ الله جل جلاله مستغنيا ان شئت أو معزولا

(٥) المختار من شعر أمير الشعراء - أحمد شوقي - ص ٢٣ - ،
٢٤ ، ط ٢ - المكتبة المصرية بدون تاريخ .

(٦) أنظر وطنية شوقي ص ١٤٨ وما بعدها د/ أحمد الحوفى ،
ووميض الأدب بين غيوم السياسة ص ١٧ ، ١٨ .

٣ - ومن شعره القومي الذي لم تنزل نغمته تدوى في آذان عشاق الحرية من أبناء العروبة كلها ممن يمجدون الكفاح من أجل الكرامة والاستقلال - قصيدته في نكبة دمشق - التي مطلعها :

سلام من باب بردى أرق ودمع لا يكفكذ يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق

ومنها قوله :

وقد نتم بين موت أو حياض فان رمت نعيم الدهر فاشقوا
والأوطان هي دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمسايا اذا الأبطال لم يسقوا ويسقوا
ففي القتل لأجبال حياة وفي الأسرى ندى لهم وعشق
والحرية الحمراء باب بكل يد مخرجة يدق (٧)

ومن هذا اللون من الشعر يترجم عن عواطف اسلامية ووطنية وقومية قوية - ويعد مظهرا من مظاهر تجديد شوقي في أغراض الشعر ومضامينه - وان ظلت حياغته وصوره وأساليبه على نمط القدامى -

وثقافة شوقي التي وعها ابان دراسته في فرنسا التي مكنت أربع سنوات من ١٨٨٧ - ١٨٩١ - اطلع خلالها على آداب الفرنسيين وتزود بثقافتهم وشاهد مسارحهم وقرأ أدبهم ، واطلع على روائع ما أدتجه - فيكتور هوجو ، ودي موسيله ، ولا فونتين ولا مرثين وغيرهم (٨) *

كان لهذه الثقافة أثر بارع في تجديد موضوعات شعره ، حيث أدخل فيه أغراضا جديدة ، لم يطرقها شعراء عصره - منها نظم القصيدة والحكاية على لسان الحيوان متأثرا بلافونتين الشاعر الفرنسي وقد والى

(٧) الشوقيات ٨٨/٢ - ٩١

(٨) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٩٣

شوقي الجهد في هذا الميدان حتى كان خير من حاكي — لافونتين —
في العربية في جميع خصائصه الفنية كما سجله له النقد والدارسون
في هذا العصر (٩) .

ومنها كذلك أنه أدخل الشعر الموضوعي في أدبنا المعاصر ، بعد أن
كان شعرا غنائيا فقط ، حيث تمكن من أن يؤلف مسرحية شعرية جيدة
السبك رصينة التعبير فيها شيء من أصول الفن المسرحي وعليها طابع
الأدب الرفيع شعرا ، وبذلك عد عمله هذا فتحا جديدا في أدبنا العربي
لا سيما وقد توالى إنتاجه المسرحي ، وكان في كل مرة يخطو نحو
الكمال الفني خطوات — على الرغم مما وجه إلى مسرحياته من نقد (١٠) .

ويعد شوقي رائد هذا الفن في أدبنا العربي الحديث بلا منازع ،
وان سبقته محاولات متواضعة كانت من خليل اليازجي ومحمد عثمان
جلال وأبي خليل القباني — كما هو مفصل في موضعه (١١) .

ومهما يكن فإن شعر شوقي قد جمع فيه بين القديم والجديد ،
فهو في صياغته وقلبه وصوره وبنائه قديم وان فرض شوقي ذاته
عليه وضمنه كثيرا من مبتكراته الفنية وصوره الفصبة وموسيقاه الرائعة
العذبة ، التي أعطت شعره مذاقا خاصا ميزه عن شعراء مدرسته .

وهو في موضوعاته ومضامينه الوطنية والقومية . وبعض أغراضه
الأخرى — التي هي وليدة ثقافته الأوروبية — جديد ، حيث كان شعره

(٩) راجع الأدب المقارن د/محمد غنيمي هلال ط ٣ ص ١٧٩
وما يليها . وانظر نماذج من هذا القصص الشعري في ديوانه —
الشوقيات —

(١٠) (١١) راجع : المسرحية نشأتها وتاريخها للأستاذ / عمر
الديسوقي ص ٣١ وما بعدها : الأولى ١٩٥٤ والأدب العربي المعاصر في
مصر ص ٦٩ وما بعدها د/شوقي ضيف .

صدى لشخصيته وثقافته وأحداث عصره ، وذلك باستثناء ما كان يرفعه من مديح متملق الى الأعتاب الهندوية فى الفترة التى كان فيها مكبل الفن يفرض عليه النظم فى تجارب معينة لم تتفعل بها نفسه ولم تنبع من أعماقه ، وكان فيها التقليد بينا ، وهى وان أسقطناها من ديوانه فإن ما بقى من شعره يشهد على نبوغه وعبقريته وأصالته •

وشوقى مجدد حتى فى بعثه وأحيائه للقديم ، لأن البعث وسيلة من وسائل التجديد ، بل قد يكون البعث أكد وسائل التجديد ، لأنه يصل ما بين مدنية دارسة ومدنية وليدة يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسلف — كما يرى الدكتور هيكل فى دراسته عنه التى قدم بها ديوانه (١٢) •

* * *

(١٢) مقدمة الشوقيات للدكتور محمد حسين هيكل ج ٢ •

قصيدة المساء^(١) قالها خليل مطران

— وهو عليل في — مكس الاسكندرية —

— ١ —

١ — داء ألم : فخلت فيه شنفائي

من صيبوتي فتضاعفت برهائي

٢ — يا للضعيفين ! استبدا بي وما

في الظلم مثل تحكم الضعفاء

٣ — قلب أذابته الصبابة والجوى

وغلالة رثت من الأدوية

٤ — والروح بينهما فسليم تهد

في حالي التصويب والصعداء

٥ — والمقل كالصباح يغشى نوره

كدرى ويضعفه نضوب دماي

٦ — هذا الذي أبقيته يامنيتي

من أضلعي وحشاشتي وذكائي

٧ — عمرين فيك أنسعت لو أنصفتي

لم يجدرنا بتأسف وبكائي

٨ — عمر الفتى الهاني وعمر مخد

ببيانه — لولاك — في الأحياء

(١) ديوان الخليل ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٦ •

(٣) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب •

٩ - تغدوت لم أنعم كذى جهك ولم
أغنم كذى عقل ضمان بقاء

١٠ - يا كوكبا من يهتدى بضياءه
يهديه دالغ ضلالة ورياء

١١ - يا موردا يسقى الورود سراه
ظلماً الى أن يهلكوا بظلماء

١٢ - يا زهرة تحبى رواعى حسنها
وتميت ناشقها بلا ارعاء

١٣ - هذا عتابك غير أنى مخطيء
أيرام سبى بعد فى هوى حسناء

١٤ - حاشاك بل كتب الشقاء على الورى
والحب لم يبرح أحب شقاء

١٥ - نعم الضلالة حيث تؤنس مقلتى
أنوار تلك الطلعة الزهراء

١٦ - نعم الشفاء اذا رويت برشفة
يكذوبة من وهم ذاك المباء

١٧ - نعم الحياة اذا قضيت بنشقة
من طيب تلك الروضة الغبراء

(١٢) بلا ارعاء : بلا ابقاء عليه •

- ١٨ - أنى أقمت على التعللة بالمنى
 فى غربة قالوا : تكون دوائى
- ١٩ - ان ام يشف، هذا الجسم طيب هوائها
 أيلطف النيران طيف هواء ؟
- ٢٠ - او يمىك الحوباء حسن مقامها
 هل مسكة فى البعد للحوباء ؟
- ٢١ - عبت طوافى فى البلاد وعلة
 فى علة منفاى لاسنشفاء
- ٢٢ - متفرد بصبايتى متفرد
 بكسابتى متفرد بعنساتى
- ٢٣ - شاك الى البحر اضطراب خواطرى
 فيجيينى برياحه الهوجاء
- ٢٤ - ثاو على صخر أصم وليت لى
 قلبى كهدى الصخرة الصماء
- ٢٥ - ينتابها موج كموج مكارمى
 ويفتها كالسقم فى أعصابى
- ٢٦ - والبحر خفاق الجوانب ضائق
 كمدا كصدري ساعة الامساك

(٢٠) يمىك الحوباء : يحفظ الروح •

- ٢٧ - تغشى البرية كدرة وكأنها
صعدت الى عيني من أحشائي
- ٢٨ - والأفق معتكر قريح جفنه
يغضى على الغمرات والأقذاء
- ٢٩ - يالللغروب وما به من عبرة
للمســـتهام ! وعبرة للرائى !
- ٣٠ - أو ليس نزعا للنهار وصرعة
للمشمس بين مآتم الأضواء ؟
- ٣١ - أو ليس طمسا لليقين ومبعثا
للسك بين غلائل الظلماء ؟
- ٣٢ - أو ليس محوا للوجود الى مدى
وابتادة لمعالم الأشياء ؟
- ٣٣ - حتى يكون النور تجديدا لها
ويكون شسبه البعث عود ذكاء
- ٣٤ - ولتند ذكرك والنهار مودع
والقلب بين مهابة ورجاء
- ٣٥ - وخواطرى تبدو تجاه نواظرى
كلهى كدامية الســـحاب ازائى

(٣٣) ذكاء : الشمس *

(٣٥) كلهى : جريحة *

٣٦ - والدمع من جفنى يسيل مشعشعا
بسنى الشجاع الغارب المثرأى

٣٧ - والشمس فى شفق يسيل نضاره
فوق العقيق على ذرى سـوداء

٣٨ - مرت خلال غمامتين تحدرا
وتقطرت كالدمنة الحمراء

٣٩ - فكان آخر دمة للكون قد
مزجت بأخر أدمعى لرنائى

٤٠ - وكأننى أنست يومى زائلا
فرايت فى المرأة كيف مسائى

* * *

(٣٧) ذرى : مرتفعات •

تحليل ونقد

(١) التجربة والأفكار العامة : هذه القصيدة ذاتية شعورية صور فيها مطران نفسه الممتلئة بالآلام والعلل ، فلقطد مرض بعد حب أخفق فيه ، فنصح به بعض أصدقائه أن يذهب الى — المذبح — من ضواحي الاسكندرية ، حيث الهواء الطلق والنسيم العليل ، عله يشفى من علته ويبرأ من سقمه • ولكنه لم ينعم بذلك بما كان يؤمل من الشفاء ، بل برحت به آلام الحب فوق ما كان يعانيه من آلام المرض ، وقد كان يظن أن المرض يشفيه من الحب ، فاذا بهما يتعاونان عليه ويستبدان به على ضعفهما •

كما استبدت به وحشة البعاد والغربة ، وقد أشاع ذلك في نفسه جوا كئيباً حزيناً — من جراء ألمه وضيقه ووحشته — ، طفق يتغنى بهذه الآلام التي تجمعت في أعماقه ، ولم يجد غير الطبيعة بينها سكواً ويودعها أوصابه مازجا بين ذاته وبينها ، على نمط ما فعله الشعراء الغربيون ، الذين تغنوا بآلامهم واجتروا أحزانهم ومزجوا ذواتهم بالطبيعة ومشاهدا ومظاهرها (١) •

والقصيدة كلها ترجمة صادقة عن هذه التجربة الوجدانية الذاتية ، التي استمدتها الشاعر من واقعة الأليم ، واستطاع أن يؤلف بين أجزائها في ترابط شعوري كامل وتصوير شعري مثير ، وضمنها الأفكار الآتية :
(١) سكوى الشاعر مما اعتلج في أعماقه من حزن وأسى ، حيث كان يظن أن المرض يشفيه من آلام حبه فاذا بهما يتعاونان عليه معا فذاب قلبه من الصبابة والشوق ، وأصبح جسمه غلالة رقيقة من كثرة الأمراض ، وروحه تتردد في أنفاسه من كثرة تنهده ، والعقل نسيت أنواره الأكدار والأمراض •

(١) راجع : الرومانتيكية د/محمد غنيمي هلال •

وهكذا صور مطران نفسه فريسة مرضين قاتلين : مرض الحب
ومرض الجسد الذين استلبا به وأنهكا قواه ، وتركاه يئن من لوعة
الشوق وجراح الألم ، وقد عبر عن هذه الأفكار فى الأبيات من الاول
الى الخامس •

(ب) معاتبة حبييته التى لم تعطف عليه ولم تعنه فى حبه
الحار ، الذى تاججت جذوته ، دون أن يحظى بما يجرى فى وجدانه
تيار الحنين الدافق ، الذى يملأ حياته ، ويحفظها من الانقباض والوحشة ،
ثم تحسره على ما ضاع من عمره الفانى ، وعمره الذى كان يمكن أن
يخلده بيبانه وفنه ، لو أنها بادلتها احساسا باحساس • وأنصفته مما
أسلمته اليه من مرض استعصى معه العلاج ، وقد صور هذه المعانى
فى الأبيات من السادس الى التاسع •

(ج) وصف مفاتن حبييته وتغزله فيها ، فهى كوكب هديه ضلال ،
وهى مورد يقتل الخماء سرابه ، وزهرة تحيي النواثر وتميت من يلتمس
عبيرها ، وهو راخ بضلالتها لو تمتع منها بنظرة ، وتشفيه منها رشفة
مكذوبة ، كما تسعده الحياة او ظفر من طيها بنشقة وهكذا مرآه :

يخرخ من بخلها عليه وصدها عنه ، ولكنه لا يلبث أن يرضى بأى
شئ منها ولو كان سرايا ووهما ينعم فيه بالضلال ويشفى بانوهم •
وقد تناول هذه المعانى فى الأبيات من العاشر الى السابع عشر •

وهو فى هذا الاحساس يشبه من بعض الوجوه بعض شعراء الغزل
الغفيف ، الذين كانوا يقنعون فى حبهم بالآمال الخادعة ، والأمانى
الواهمة والصدود والتمنع وما الى ذلك ، كجهيل بن معمر الذى يقول :

وانى لأمنع من بثينة بالذى

لو أبصره الواشى لقرت بلبله

بلا ، وبألا أستطيع ، وبالننى

وبالأمل المرجو قد خاب آمله

(د) وفى الأبيات من الثامن عشر الى الثامن والعشرين - صور الشاعر يأسه من الشقاء من أدوائه المستفحلة وعطشه المستعصية ، التى تجمعت كلها لتحطيم قلبه وتمزيق جسده جميعا ، وحنى شفاء الجسد - ان تم - فانه لا يجدى مدامت نار الوجد مناججة فى جوانحه ، وفى هذا الجزء الصادق الحار فى القصيدة نرى الشاعر يترجم فى حرارة عما يعانيه من آلام الاغتراب ووحشة البعاد ، ونقرده بالصباية والكآبة والعناء ، حتى انه رأى أن داوافة بالبلاد عبث من العبث ، وأن غربته من أجل الاستشفاء ضرب من العلة القاتلة التى تضاف الى رصيده الضخم من العناء والأوصاب .

ولقد تلفت مطران حوله ليجد من يشاركة همومه وينساطره أحزانه ويبيئه شكواه ولوعته ، فلم يجد غير الطبيعة التى نهضت للتسرية عنه ومعاونته فى آلامه ، حتى كأنها هى الأخرى "عسى مما يعانى منه ، بعد أن خلع عايتها أحاسيسه وبثها أوجاعه وآلامه ، مالمحضر اضطربت أمواجه ، وخفقت جوانبه ، والأثق اعتكرت أنحاؤه ، وقرحت أجفانه من فرط ما أصابه من الأرق والسهاد والأنين والوجد وما اليه من مشاعر حزينة كثيفة .

(هـ) والأبيات من التاسع والعشرين الى الثالث والثلاثين - نزع الشاعر فيها منزعا تأمليا فيه كثير من العبر والتوليد والايحاء ، فالغروب نزع النهار وصرع للشمس بين ما تم الأضواء ، ومحو الوجود الى مدى ، حتى يبعث الصباح من جديد .

(و) وفى الجزء الأخير من القصيدة الذى يبدأ بقوله :

ولقد ذكرتكَ والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء ... الخ .

وصف: لما يعانيه الشاعر من تمزق وألم واحساس ، حيث انطوى على الشكوى بقلبه الجريح وعواطفه المكرومة فى حانة بين الرجاء فى حبيبته وبين اليأس منها ، يعتصر فؤاده ويشعشع دمه ويئن

من حواطر الذكرى المشحونة بالآلام • وقد خلع هذه الأحاسيس على
الكون من حواه • حيث اكتملت الطبيعة واحمر الأفق وانعبر المكان
واضطربت الأجواء كلها ورثاه الكون بما بقى له من دمة حزينة مزجت
بآخر أدمعه أرثائه وتوديع مساء حياته •

٢- العاطفة والفكر فى القصيدة :

تمكن مطران فى قصيدته هذه من المزج بين عالمفته وعقله ، أو بين
وجدانه وفكره ، وقد بدت العاطفة قوية حارة - فى بعض مقاطع
القصيدة - التى تحمل من عنصر الاثارة ما يجعل القارئ، يتمثل التجربة
أدق تمثيل ، ويتجاوب شعوريا مع معانيها التى عبرت عن ألم الشاعر
وحسرتة وياسسه •

ويبدو ذلك واضحا فى المتن الذى يبدأ بقوله :

انى أثمرت على القلة بالمنى فى غربه قالوا : تكون دوائى

ويينهى بقوله :

والأفق معتكر قريح جفنه يغضى عنى الغمرات والأقذاء

حيث سرته حرارة العاداة بقوة فى الأبيات • غاشاعر لا يرى
فى غربه ووحدته فى الاسكندرية - على طيب هوائها - علاجا ليران
قابه ، وان سُفت عنه جسمه ، فيشكو الى البحر المضطرب اضطراب
خواطره ، والى الصخر الأصم والموج الثائر ، ويرى فى هذه انكائنات
شريرة له فى ضيقه وكمد وكدره صدره •

ويتمثل لوعة العاطفة وتخنن جذوتها حينما يطغى عليها العقل
المنطقى ، وينزع الشاعر الى التوليد والتقسيم والاستقصاء ، ونلاحظ
هذا فى المقطع الأول من القصيدة ، حيث جنح مطران الى استقصاء

آثار الألم فى الجسم والقلب والعقل والروح ، حتى يخيل للقارىء
أن الشاعر فى مرض وصف لا شكوى وبخاصة هذان البيتان :

والروح بينهما مسير تنهد فى حالى التصويب والصعداء
والعقل كما أصبح يغشى نوره كدرى وينسحقه نضوب دمائى

ومثل هذه الأبيات التى طغى العقل فيها على الوجدان كثير
من أبيات قصيدته ، ففي الأبيات — من العاشر وحتى السابع عشر —
يرى الشاعر دريضا على الاستقصاء فى تصوير جمال حبيبته ، فهى
كوكب مضل ، وهى مورد خادع ، وهى زهرة تمتع العيون فقط ، وكلها
صور جميلة تثير خيال الفكر ، ولكن ينقصها انتقاد العاطفة ولوعة الوجد ،
سما يجعل حبه عقليا فلسفيا روحه الفكرة لا العاطفة .

ومثلها الأبيات التى تبدأ بقوله :

يا للغروب وما به من عبرة للمسـتهام وعبرة للرأى

وتنتهى بقوله :

حتى يكون النور تجديدا لها ويكون شبه البعث عود ذكاء

فلقد نزع فيها مطران منزعا تأمليا ، فيه كثير من التوليد والإيحاء ،
فالغروب نزع للأنهار ، وصرع للشمس بين ماتم الأخسواء ومحو للوجود
الى مدى حتى يبعث مع الصباح من جديد .

على أننا لا نيب ذلك على مطران الذى أولع بالتجديد
فى شعره وقطع فيه شوطا لا بأس به ، ولعله تصد الى هذا المزج
بين العاطفة والفكر فى القصيدة حتى يكون مظهرا من مظاهر التجديد
الذى نادى به .

يقول الدكتور طه حسين عن مطران فى هذا الصدد : « . . . ثم هو

فوق ذلك مقتصد يرى أن الشعر ليس خيالا صرفا ولا عقلا صرفا وانما هو مزيج منهما « (٢) » •

كما عقب الدكتور محمد مندور على قصيدة مطران هذه بقوله :
« هذه قصيدة وجدانية قوية ، ولكن وجدانية مطران تغايرها ألفسه
الشعر العربى فى وجدانياته ، وذلك لأنها مركبة لا تصدر عن عاطفة
موحدة تنبثق من القلب مباشرة ، بل تمتزج بالخيال الشعرى ويسيطر
الفكر على صياغتها » (٣) •

٣ - العبارة والصورة :

فى قصيدة مطران هذه كثير من العبارات الراهزة المتسعة ، التى
تحمل طاقة شعورية قوية بما ينبعث فيها من وحى الألفاظ ورمزية
الصور : والنمى تنم عن جرأة فى الصياغة وخروج على الاستعمال
العربى المحافظ فى التعبير والتصوير •

ومنها فى قصيدته : الخواطر الكلى ، الدمع المشعشع ، والدمعة
الاحمرء ، ما تهم الأضواء ، وغيرها • ومثل هذه التعبيرات والصور قد
أكثر منها شعراء المذهب الرمزي فى أوروبا مثل : بودلير ورامبو وغيرهما
من أنبياء هذا المذهب الذين نادوا بتجاوب الحواس ، فأطلقوا على
المسموع صفة المسموم ، ووصفوا الأصوات بما توصف به المرئيات
وهكذا ، لا اعتقادهم بأن الحواس تتجاوب ويأخذ بعضها حسنة بعض •
وقد قلدهم فى هذا كثير من شعرائنا ذوى الفزعات التجديدية (٤) •

(٢) حادث وشوقى ص ٣٦

(٣) محاضرات عن خليل مطران ص ١٨

(٤) راجع الرمزية والأدب العربى الحديث - أنطون غطاس
كرم والمذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق د/ محمد السعدى فرهود •

ولقد تمكن مطران من أن يؤلف كثيرا من الصور الشعرية الجديدة من مجموعة هذه التعابير الرمزية المشعة ، يؤازره خيانه الخصب وتأملاته العميقة وقدرته على المواءمة في التأليف بين أجزاء صورته ، مستعينا بمظاهر الطبيعة التي خلع على كائناتها أحاسيسه ومزج بينها وبينه مزجا عجيبا تدركه غنى :

شكوى الشاعر إلى البحر المضطرب اضطراب خواطره ، وإلى الصخر الأصم والموج التائر ، مازجا بينها وبين ما يعتريه من ضيق وكمد وكدر ،

وذلك في الأبيات من (٢٣ : ٢٨) ، ففيها مجموعة من الصور المتلاحقة التي شكلت في مجموعها صورة شعرية لنفس مطران الكئيبة التي تفيض بالأسى وتنبض بالألم ، حتى كأن مكارهه وأستقامه فاضت من أحشائه على هذه الكائنات الطبيعية فأصابتها بالكآبة وانبداء :

وفي الأبيات التي تبدأ بقوله :

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وتنتهي بالببيت (٤٠) • كثير من الصور الجزئية المتلاحقة التي تعاونت جميعها في تأليف صورة كاية حزينة معبرة عن نفس الشاعر المحزونة •

فألخواطر الكلى تحكى السحاب الدامى ، واندمع المشعشع فى جفنه يحكى الشجاع الغارب المحمر •

والشمس فى الشفق الأحمر الباكي تتحدر وتتقطر تقطر الدمعة الحمراء التي سكبقتها عينه •

وصفحة السماء خلال تلك اللحظة مرآة رأى فيها الشاعر مساء حياته •

والأبيات فى مجموعها زفرات محترقة تثيرها ذكرى الحبيب ساعة الامساء والنهار مودع •

٤ - الوحدة الفنية فى القصيدة :

ومن مظاهر استجديد فى قصيدة مطران هذه : نحقق الوحدة الفنية فيها الى حد كبير ، حيث عالج فيها موضوعا واحدا بنى عليه أفكار قصيدته من بدئها حتى نهايتها ، وصور فيها تجربة وجدانية عاشت فى أعماقه وترجمها شعرا فى مقاطع متلاحقة ، كل واحد فيها يعبر عن جزء من التجربة فى نمو واتساق .

بيد أن الوحدة العضوية التى طالب بها النقد الحديث ، والتى نجعل من القصيدة كلا مترابطا منسجما لا يمكننا أن نجزم بتحققها فى هذه القصيدة ، وإن تمثل بها النقاد المعاصرون كنموذج لهذه الوحدة العضوية - إذ يسهل علينا أن نحذف بيتا من أبياتها أو أن نضعه فى غير مكانه دون أن يختل نظام القصيدة أو تفقد ترتيبها^(٥) .

ومثال ذلك الأبيات : (١٠ ، ١١ ، ١٢) والأبيات (١٥ ، ١٦ ،

١٧) .

وليس على مطران بأس فى ذلك ، وحسبه أنه أودع شعوره ما انطوى عليه شعوره ، ولكن البأس كل البأس فى تلك الدعوة المصارخة التى قيدت الشعر الغنائى بقيود الوحدة العضوية ، التى يمكن تحققها فى الشعر الموضوعى (الملحمى والتمثيلى) دون الشعر الغنائى ، وعابت على شعراء العربى افتقاده لهذه الوحدة العضوية ، ولو حاسبنا أصحاب هذه الدعوة بما تالوا لرفضنا قصيدة مطران هذه من هذا انجاب ، مع جودتها وصدقها وتوافر عناصر الشعر الغنائى فيها . على أن شعر مطران القصصى الذى تمثلنا ببعض نماذجه فيما سبق ، قد تحققت فيه هذه الوحدة العضوية تحققا كاملا .

(٥) راجع : اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ١٣٢ وما

بعدها د/ محمد نايل .

دراسة عن مطران ١٨٧٢ - ١٩٤٩ :

- ١ -

ولد بلبان وتلقى علومه الأولى فيها ، هاجر منها بعد ذلك هرباً من بطش الحكيم التركي ، فاستقر مدة عامين في باريس ، عاد بعدها إلى مصر حيث قضى فيها بقية حياته إلى أن مات فيها .

تأثر مطران بالثقافة الفرنسية تأثراً واضحاً في أعماله وترجماته ، كما وضع أيضاً في شعره القصصى ذى الطابع الرمزي .

أنقن اللغة الانجليزية كذلك وترجم مجموعة من مسرحيات شكسبير (عطيل) ، (تاجر البندقية) ، (هامليت) .

وهو شاعر عربى مجيد ، له ديوان شعرى مطبوع فى أربعة أجزاء بعنوان (ديوان الخليل) .

- ٢ -

وشعر «مطران يعد طرازاً جديداً بالنسبة لعصره ، فهو لم يلجأ فيه إلى المعارضة والاحتذاء التام للمقدمى كما فعل كثير غيره وإنما كان يكتفى فيه باللفظ الفصيح والمفردات السليمة يحمونها أفكاره ومعانيه .

تقرأ شعره فتحس بأن صورة الشعر العربى لم تتغير وذلك لاحتفاظه بأصوله الموروثة وتقاليده الفنية ، مع التعبير فيه عن نزاعاته الوجدانية ومعانيه العقلية وما يجيش فى نفسه تعبيراً تاملاً .

وكان مطران بطبعه نزاعاً إلى التجديد المعتدل مندفعاً إليه ، وقد أعلن عن ذلك فى صدر ديوانه قائلاً : « شرعت أنظم الشعر لقرضية

نفسى حيث اتخاى . أو اتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلبى ، متابعاً
عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه ، ومراعاة الوجدان على
مشتهاه ، موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ،
لا اختشى استندامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق
من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التنريط فى
نبىء منها إلا ما فاتنى عنه ولم أكن مهتر فيه صحت ، فقد فعل
فصحاء العرب تبلى ما لا يقاس إليه فعلى ، فأنهم توسعوا فى مذهب
البيان توسع الرشيد والحزم (١) :

وفى هذا البيان الوجيز ترسم الخطوط العريضة لمذهب مطران فى
شعره كما تتجلى نزعتة فيه وهى نزعة محافظة مبددة بى أن *
وتكمن نية شعره أنه أودع فيه مشاعره وضمه أحداث عصره
وبيئته ومزج فيه بين الخيال والحقيقة كما يقول : « هذا شعري وفيه
كل شعورى — هو شعر الحياة والحقيقة والخيال نظمت فى مختلف
الآونة وتقيدت فيه زفراتى وأحلامى ، وسجلت بقوافيه أحداث
زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء » (٢) *

ولقد بوه بمطران وبشعره كوكبة من أعلام النقد المعاصر وعدوه
فى الطبيعة من الشعراء المجددين ، ففىما عقب به الدكتور طه حسين
على كلام مطران الذى صدر به الجزء الأول من ديوانه — ما يفيد
بان مطران ثابر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، سلك طريق
القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد إليه مجددا
لا مقادا » (٣) *

كما يرى : « أن لطران فى جمال الشعر مذهباً ان لم يكن واضحاً
كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار ، فهو على كل حال مذهب قيم ،

(١) مقدمة ديوان الخليل ١/٨ ط ٢ دار الهلال ١٩٤٩ *

(٢) مقدمة ديوان الخليل ١/٢ وما بعدها *

(٣) ، ٤) حافظ وشوقى ص ١٥ ، ١٦

لأنه يمثل شيئاً من المثل الأعلى الفنى فى هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الأبيات وتتناثر وتتدابر ، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتزمة الأجزاء ، حسنة التاليف فيما بينها .

ثم هو فوق ذلك مقتصد يرى أن الشعر ليس شياً لا صرفاً ولا عقلاً حسراً وإنما هو مزاج منهما « (٤) » .

وذهب الأستاذ العتاد الى أن مطران مجدد ، وسبيل هذا التجديد عنده ثقافته الأوروبية التى وعها نى وقت مبكر يقول : « أما أنه من المجددين فذاك ما لا ريب فيه ، ولكنه لا فضل له فى تجديد ، لأنه لم يكن يستلج غير . . . لأنه درج على الدراسة الأوروبية ولم يفرخ عليه المانى المورث أن يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية أو بقايا الآداب الإسلامية (٥) » .

كما يرى الدكتور مندور : أن الاجماع يكاد ينعقد على أن خليل مطران يعتبر رائداً للمدرسة الجديدة فى الشعر العربى المعاصر ، التى تبدأ بمحاران وتمتد فى جماعة أبو لو خلال أبى شادى وناجى ومن سار على دربهما هى مصر وغيرها من البلاد العربية « (٦) » .

ونرى أن مطران وإن حافظ طلى ديباجة القصيدة القديمة فى كثير من عناصرها — فإن ولعاً بالتجديد ، وفد نادى به منذ وقت مبكر فى مطلع هذا القرن ، ولعل دعوته الى وحدة القصيدة وتلاحم أجزائها وتلاؤم أبياتها ، قد سبقت دعوة العتاد مع زميليه — شكرى والمازنى — إليها « (٧) » .

(٥) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل المانى ص ١٩٩

(٦) مهامرات عن خليل مطران ص ١١ بتصرف يسير .

وانظر : دراسات فى الأدب العربى وتاريخه ص ١١ ومايليهما / ٢ / ٢

(٧) كانت دعوة خليل ١٩٠٨ قيل أن ينشر العقاد كتاب الديوان

مع زميله المازنى ١٩٢١ انظر : المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣

بل ان هذا التجديد كان بالنسبة لمطران أمنية كبرى :راوده وتلاحق خيالاته يقول : « أما الأمنية الكبرى التي كانت تجيش بى فهي أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره ، وأن أستطيع اقناع الجامدين بأن لعننا أم الاخات اذا حفظت وخدمت بحق خدمتها ، ففيها نروب الكفاية اتجارى دل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن المذائق والجلال من أغراض الفنون » (٨) •

وكلام مطران هذا يعبر عن رغبة شديدة فى التجديد . وحب جارف للغة العربية التي أراد لها مطران أن تنمو دلالاتها وتتوسع تعابيرها ، حتى تنهض لتعبر عن دقائق الحس وخلجات النفس وكل ما يجد من مبهذات وما يستحدث من فنون ، هذا على خلاف ما ذهب اليه المعتاد سابقا من أن تجديد مطران نابع من ثقافته الأوروبية ، ولا فضل له على تجديده لأنه لم يكن يستطيع غيره ، ولأن الماضى الموروث لم يفرص عليه أن يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية (٩) •

بيد أن مطران كان رزينا فى دعوته الى التجديد متأنيا مبه ، لم يروج لها بحملة عاتية او بهجوم ضار يشنه على مخالفى مذهبه — كما فعل غيرد — ، ولم ينسلخ عن القديم الذى بدأ به حياته الشعرية ، وله فيه نتاج ضخم ضمه ديوانه : ونهج فيه نهج القدامى فى أغراضهم ودورهم ومعانيهم •

وانما جدد بأناة وحذر ، وقطع على طريق التجديد سوطا لا بأس به ، وان بالغ فى وصفه وتقديره من رأى أن مطران « قد استقر على مدرسة جديدة يومئذ فى الأدب العربى هى المدرسة الرومانسية ، التي ألفت بها اليه ثقافة الفرنسية وبرزت لأول مرة فى جيل واحد التقديده فى الشعر العربى » (١٠) •

(٨) مقدمة ديوان الخليل ٢/٢ ، ٣

(٩) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٩٩ ، ٢٠٠

(١٠) بلابل من الشرق ص ١١٠ صالح جودت •

ودليلنا على ذلك أنه وإن كان قد صاغ كثيرا من وجدانياته على نمط الشعراء الرومانسيين وسمات شعرهم ، وأدخل ألوانا جديدة في شعرا الحديث ، - كالشعر القصصى - مثلا ، فإنه لم يستطع التخلص نهائيا من طابع القديم ومادته وقالبه وأغراضه . مع أنه قد أباح لنفسه ان تبكر في الصياغة وأن تفتن في الخيال .

ومن نم شعره - فيها نرى - مزيج من القديم والجديد ، وإن شئت قلت : مطران وسط بين شعراء الجيل المحافظ كالبارودي وحافظ وشوقي ، وبين شعراء الجيل الجديد - كجماعة الديوان وجماعة أبولو - هذا ما نرتضيه .

- ٣ -

(١) ومن شعره في الوطنية قوله : في رثاء عمر المختار (١١)
زعيم طرابلس الذي استشهد تحت نير الاستعمار الطلياني :

لله يا « عمر المختار » حكمته في أن تلاقى ما لاقيت مظلوما
ان يقتلوك عما ان عجلوا أجلا قد خان مذ كنت مقدورا ومحتوما
هل يملك الحي لو دانت له أمم لأمر ربك تأخيرا وتقديما ؟
لكنها عظة للشرق أوسعها مصابه بك في الأخلاق تجسيما
لعله مستيق بعد خجسته

أو مستقيل من الخسف الذي سبما ، الخ

وهذا غرض من الأغراض الجديدة التي استوجاها مطران من أحداث عصره لأنه صب في قالب قديم - كما ترى - .

(١١) ديوان الخليل ٨١/٤ ، ٨٢ ط ٣ . وانظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر ص ١٢٢ : ١٤ د/شوقي نجيف ط ٥

وقد تناول شوقي هذا الغرض ذاته ، ولكنه كان فى تصويره له
وتعبيره عنه أروع فنا وأصدق عاطفة من مطران ، حيث مزج فى براعة
بين عاطفة الحزن على استشهاد الزعيم البطل ، وبين عاطفة الوطنية
المتأججة التى تمجرت غمضا وحنقا على الاستعمار وغدره ، وحفزت على
مقاومته وترحمته .

يقول شوقي :

ركزوا رفاتك فى ارمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم : سبوا منارا من دم توحى الى جيل الفد انبغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة فى عد بين الشعوب مودة واذاء ؟
جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء الخ (١٢)

(٢) ومن نماذج شعره القصصى الذى تراكبت أجزاءه وتمازجت
أبياته ، وتحققت فيه الوحدة العضوية - قصيدته فتاة الجبل
الاسود (١٣) - ، التى نظمها فى حادثة جرت قبيل استقلال ذلك الجبل،
وفيهما يمجّد الكفاح من أجل الحرية والاستقلال *

وقد ساق أحداثها فى أسلوب قصصى مثير ، ارتبطت فيه الأحداث
ارتباطا قويا ، يدل على تماسك القصيدة ووحدتها وهو ما ألع عليه
النقد الحديث وطالب الشعراء بالتمسك به فى شعرهم *

ومنها هذا المقطع نرى وصف هذه الفتاة :

وأرخت ضفائرها فارقت الى منكبيها من المعقد
تحيط دجاها بشمس عرا ها سقام فحالت الى فرقد

(١٢) الشوقيات ١٧/٣ - ٢٠

(١٣) ديوان الخليل ١٧٩/١ : ١٨٣

وقالت : أمهجه أنثى تفى بتارات صرعانم الهمد ؟
 تفانوا فما خاض فى وقعة غتى من مسود ولا سيد
 يرى العز فى نصر سلطانه والا غفى موت مستشهد
 فأصغى الأمير الى قولها — وأم يستنفر وام يحقق —
 وأعذلم نفس الشكاه وبسا — سبابها فى الدناديد ام يه —
 وجسنا بمتركة داعيا الى الشرك من يره يعبد
 أبى عزة قتل أنثى تذو د زياد المدافع لا المعتدى
 فقال انقلوها الى مأمن وأوصوا بها نطس العود .. الخ
 ومن شعرد القصصى غير هذه القصيدة قصائده — حكاية عاشقين
 — وحرب غير عادة — والجنين الشهيد — وغرام طفلين — والطفل
 الطاهر — وفنجان قهوة — ومقتل بزرجمهر — ونيرون — وغيرها من
 قصائد قصصية استطاع بها الخليل أن يدخل هذا اللون من الشعر
 الموضوعى فى أدبنا المعاصر :

وذلك بما وهب من مقدرة على رسم الشخصيات والغوص فى
 أعماقها : والتقاط أدق السمات والملامح لها ، وإبرازها فى إطار يموج
 بالصراع والحركة ، ويكشف عما يعتل فى داخلها ويهيم فى حناياها،
 وهذا مظهر من مظاهر تجديد مطران فى دنيا الشعر العربى المعاصر
 مضمونا وشكلا (١٤) *

(٣) ومن نماذج شعره الذى مزج فيه بين مظاهر الطبيعة وبين
 الانسان — على نمط ما يفعل الرومانسيون الغربيون فى بعض
 مضامينهم (١٥) *

(١٤) انظر : جماعة أبولو د/ عبد العزيز الدسوقي *

(١٥) راجع : الأدب المقارن ص ٣٥٨ ط ٣ د / محمد شيمى هلال

قصيدته - المرأة الناضرة (١٦) - التي يصور فيها حسناء بمنى
 فى سحبة أمها فى حديقة الجيزة فى أصيل يوم هبت فيه ريح السموم،
 وقد رأى الشاعر هذه الفتاة تنظر فى عينى أمها وتصلح شعرها فنادى
 من هذا المذلل أحداث تجربته الوجدانية الحية •

ومنها قوله :

عاجت أصيلا بالرياض تطوفها	كمليكة طافت معاهد حكمها
حسناء امرها الجمال فأنشأت	فى أيكها الأطياف تخطب باسمها
والحسن أكمل ما يكون نسبية	فى بدئها ، وملاحه فى تمها
سنرت بأخضر سندسى جيدها	فحكا المحيا وردة فى كمها
وقمايلت فى ثوب خز مورك	غصنا وهل للعصن نضرة جسمها؟
فاذا دنت هى سيرها من زهرة	همت بأخذ ديولها وبلثمها
أو جاورت فرعا رطيبا لينسا	ألوى بمعطفه ومال لضمها
ويحف أبصار بها فيحزنها	بحيائها ويسكنها فى وهمها
كالنحل طفن بزهرة فلسعنها	ورشفن منها مارشفن برغمها • الخ

(١٦) ديوان الخليل ٢١/١ وما بعدها •

٦ - من قصيدة الأطلال لناجى

ومن شعر ناجى قصيدة - الأطلال - ذائعة الذكر التى سنعرض لها بالدراسة والنقد فى منهج تحليلى نبين من خلاله خصائص المذهب (الرومانسى) الذى مثله ناجى فى شعره أدق تمثيل وهى مثبتة فى ديوانه وراء الغمام (١) * ق

يقول ناجى :

يا فؤادى رحم الله الهوى كان صرحا من خيال فهوى
اسقنى واشرب على أطلاله واروعنى طالما الدمع روى
كيف ذاك الدب أمسى خبرا وحديثا من أحاديث الجوى
وبساطا من ندامى حلم هم تواروا أبدا وهو انطوى
* * *

يا رياحا ليس يهدا عصفها مضب الزيت ومحباحى انطفا
وأنا أقتات من وهم غفا وأفى العمر لناس ما وفى
كم تقلبت على خنجره لا الهوى مال ولا الجفن غفا
واذا القلب على غفرانه كلما غار به النصل غفا
* * *

يا غراما كان منى فى دمي قدرا كالموت أو فى طعمه
ما قضينا ساعة فى عرسه وقضينا العمر فى مأثمة
ما انتزاعى دميعة من عينه واغتصابى بسمة من فمه
ليت شعرى أين منه هربى أين يمضى هارب من دمه
* * *

(١) ط دار العودة بيروت ١٩٧٣ م

لست أنساك وقد أغريتني بفم عذب المناداة رقيق
ويد تمتد نحوى كيد من خلال الوج مدت لغريق
آه يا قبطة أقدامى اذا شكت الأقدام أشواك الطريق
وبريقا يطمأ السارى له أين فى عينيك ذياك البريق
* * *

لست أنساك وقد أغريتني بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح مى سمائى وأنا لك أعلو فكأنى محض روح
يا لها من قمم كنا بها نتلاقى وبسرينا نبسوح
نستشف العيب من أبراجها ونرى الناس ظلالا فى السفوح
* * *

أنت حسن فى ضحاى لم يزل وأنا عندى أحزان الطفل
وبقايا الذلل من ركب رحل وخيوط النور من نجم أفل
الح الدنيا بعينى سئم وأرى حولى أشباح المال
راقصات فوق أشلاء الهوى معولات فوق أجساد الأمل
* * *

ذهب العمر هباء فاذهبنى لم يكن وعداء الا شبحا
صفحة قد ذهب الدهر بها أثبت الحب عليها ومحا
انظرى ضحكى ورقصى فرحا وأنا أحمل قلبا ذبحا
ويرانى الناس روجا طائرا والجوى يطحننى طحن الرحا
* * *

كنت تمثال خيالي فهو
ويحها لم تدر ماذا حطمت
يا حياء اليائس المفرد
يا قفارا لافحات ما بها
المقادير أرادت لا يدي
حطمت تاجي وهدت معبدي
يا يبابا ما به من أحد
من نجى .. يا سكون الأبد
* * *

أين من عيني حبيب ساحر
واثق الخطوة يمشى ملكا
عقب السحر كأنفاس الربى
مشرق النلما في منطقة
فيه نبل وجلال وحياء
ظالم الحسن تسهى الكبرياء
سأهم الطرف كاحلام المساء
لغة النور وتعبير السماء
* * *

أين منى مجلس أنت به
وأنما حب وقلب ودم
ومن الشوق رسول بيننا
وسقانا فانتفضنا لحظة
نقطة تمت سناء وسفى
وفراس حائر منك دنيا
ونديم قدم الكأس لنا
لغبار آدمى مسنا
* * *

ومنها قوله :

يا حبيبيا زرت يوما أيكه
لك ابطاء المدل المنعم
وهنيئى لك يكوى أعظمى
وأنما مرتقب فى موضعى
طائر الشوق أغنى ألى
وتجنى القادر المحتكم
والثوانى جمرات فى دمي
مرهف السمع لوقع القدم
* * *

يا حبيبي تله شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فاذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل الى غايته لا تقل تسنا وقل لي الحظ شاء
* * *

وتتكون هذه القصيدة من حوالى اثنين وثلاثين مقالعا ، كل مقطع
مها يتألف من أربعة أبيات مختلفة القافية — كما رأيت — ولرقة ألغناها
ولطف جرسها وروعة موسيقاها وطواعيتها للتلحين والغناء ، نسجت
ببعض مقطوعاتها أميرة الغناء العربى الفنانة الراحلة السيدة /أم دناؤم .

* * *

حول القصيدة — تحليل ودراسة ونقد —

١ — الأفكار العامة فى القصيدة :

ناجى شاعر من أبرز شعراء جماعة أبولو — كما ذكرت — وكثير
من شعراء هذه الجماعة كانت له نزعتة الرومانسية التى تجلت
فى صور الحب الحزين المحروم الذى كان ينتهى غالباً بالفراق أو الموت ،
وذلك اياهم من الحياة وعجزهم عن التصدى للواقع الذى كانوا
يعيشون فيه ، وهروبهم من هذا الواقع الى عالم خيالى يخلقون
فى أحلامه ويهيمنون بأوهامه ، ومن ثم بعد معظمهم فى شعره عن مجتمعه
وما اضطرب فيه من أحداث ، وعاش لذاته وحدها يترجم عن خلجات
نفسه ويصور مشاعره وأحاسيسه فى شعر وجدانى حزين ، يتغنى
فيه بآلامه وأمازيه مرتما فى أحضان الطبيعة التى ذلح عليها أحاسيسه
وأودعها نجواه وبثها شكواه .

وقصيدة ناجى هذه صورة لهذا اللون من الشعر ، الذى طغى فيه الوجدان الفردى على الوجدان الجماعى . فهى تصوير لتجربة وجدانية ذاتية عاشها الشاعر واصطلى بنارها ، وجاشت فى أعماقه معانيها ، فصورها تصويرا بائسا حزيناً تارة ، نادماً أسفا تارة ثانية مثلها ظمآن تارة ثالثة .

والقصيدة هى جوهرها تحكى قصة حب عائر كانت نهايته نهاية مأساوية حزينة ، فلقد التقى ناجى بحبيبته وتحابا حبا ملك عليه لبه وسيطر على عواطفه بيد أنه كان حبا تسقيا محروما — كحب كثير من الشعراء الرومانسيين الذين قرأهم ناجى وتأثرهم فى شعرهم الذى أعجب به إعجاباً لا حد له — نضلا عن واقعية هذه التجربة ، التى ابدع خيال ناجى فى تصويرها وحبك أحداثها والتى انتهت انتهاء أليماً إذ أصبحت أطلال جسد بينما صار هو أطلال روح .

وقد اختار الشاعر لقصيدته عنواناً موحياً بهذا المعنى ، ومنسجماً الى نتيجة تلك القصة التى عاشها مع صاحبه وهو — الأطلال — .

بدأ ناجى أطلاله بداية حزينة مؤلمة ، كلها أنين ونواح وأسف على حب ضائع عفت معالمة وانطمست آثاره ، وأضحى خيراً تتناقله الألسنة وتردده الشفافة ، وان بقيت ذكراه مشعشة فى وجدانه وجروحه غائرة فى أحشائه ، لا تندمل من شدة الانسكاب وغزارة التدفق .

فهو يئن من لوعة الفراق ويلتاع من شدة الوجد ، ويندب حظه المعثر الذى أسلمه وحبيته الى فراق كئيب ، وهكذا ظل ناجى يبكى من آلام الفراق وفرط الصبابة ولوعة الشجن فى المقاطع الأولى من قصيدته

ويمضى الشاعر مع خياله الجامح ، مخاطباً نؤاده الجريح مع ذكر

الحبيبة ، العاجز عن نسيان ذلك الحب الدافق الذى عاشه ، والحلم الدافىء الذى مر به وتمرغ فى كنفه فترة قصيرة من الزمان ، معللا عجزه عن نسيان تلك الذكرى الحلوة ، بما تخيله فى حبيبته من فتنة فائنة واغراء مغر ، مصورا تحسره على الماضى الأليم الذى خلف من ورائه الهموم والجراح والآلام وذلك فى حسرة ولوعة وشجن .

ثم تتور ثائرة ناجى وتهتاج عواطفه وتشتعل نار الوجد والشوق فى حناياه ، لضياع عمره هباء دون أن يحظى بما كان يؤمله من وراء هذا الحب الفاسى الذى حطم حياته ، وهد كيانه وأسلمه الى حياة عاقلة يائسة .

ولكنه بعد ذلك يراجع حنينه ويعاوده هيامه ويعلم عن ظمئه الى حبيبته التى فتنته بسحرها ونبلها وجلالها وحيائها وحسبها الظالم وخطوتها الواثقة وسحرها العبق وذرفها الفاتك وطلعتها المشرقة ، وغيرها من مظاهر الحسن وملامح الدلال التى برع الشاعر فى تصويرها براعة فائقة .

ثم يعاوده الحنين ويسدده الشوق الى حبيبته مرة أخرى ويسترجع شريط ذكرياته معها ، معلنا فى حنين ولهفة عن أنينه وشجنه وزفرته ولوعته ، تلك التى ما برحت به ممنيا نفسه بلقائها بعدما عز اللقاء ، حتى اذا هدأت عاطفته فى المقامع الأخيرة من القصيدة راح يطالب لها الراحة وينشد لها الهدوء بعد أن حرمت من الود والعطف كما حرم هو تماما .

* * *

هذه أبرز الأفكار التى صورتها قصيدة ناجى هذه ، وهى — فيما نرى — أفكار متأخية كل مقطع فيها متلاحم فى أبياته ، وقد صور جزءا من التجربة الشعرية التى هزت وجدان الشاعر ، فعبر عنها هذا التعبير الصادق المثير .

٢ - التجربة الشعرية :

كان ناجى - كما ذكرت - معجبا اعجابا لا حد له بالفزعة الوجدانية الذاتية التي تميز بها شعر الرومانسيين الأوروبيين ومن سار على مذهبهم من شعرائنا المعاصرين ، وهى نزعة تعتمد على الترجمة عن نوازع النفس وخلجاتها وتصوير العواطف الذاتية لمنشئها ، دون العناية بتصوير الوجدان الجماعى ، بما يحمله من عواطف قومية واجتماعية وغيرها ، وقد كان ذلك من العوامل التي ساعدت على تقويض هذا المذهب ، وجعلته عرضة لسهام النقد العنيفة التي وجهت اليه والى شعرائه من جانب النقاد المحافظين (٢) .

وقصيدة ناجى هذه تصوير لتجربة وجدانية ذاتية ، انفعلى بها الشاعر وجائت فى أعماق نفسه خواطرها وأحداثها ، وهى تجربة واقعية صادقة بعيدة عن الزيف والتقليد ، الذى يذآى بالتجربة عن جمال الفن واثارته وصدقها ، وقد استمدت تلك التجربة اثارها وصدقها من الواقع الشعورى الأليم الذى عايشه الشاعر . فهى مرآة صادقة لشخصية شاعر جريح يئن من انكسار سعادته وييكى على أطلال حبه .

ولقد عمل على صدق هذه التجربة الشعرية - فى أطلال ناجى هذه - بل وربما فى شعره الوجدانى كله - أنه شاعر وجدانى صادق مع نفسه ومع وجدانه جميعا . انبعث شعره من أعماقه ، وعبر فيه عن دفقات شعوره ، ونبض عاطفته وذوب وجدانه ، وصور شياها انطوت عليه نفسه من الالم وآمال .

(٢) راجع فى ذلك : الشعر المصرى بعد شرقى - الحلقة الثالثة - د/ محمد مندور والرومانتيكية د/ محمد غنيمى هلال .

وهذه القصيدة — كما ألمعت آنفا — تحكى قصة مأساوية حزينة ، عاشها الشاعر وتلظى بنارها وأن من زفراتها ، ومن ثم اتسمت التجربة الشعورية فيها بالصدق الشعورى والفنى ، لأنها أتت مطابقة أوجدان الشاعر معبرة عن حقيقة مشاعره وانطباعاته .

وصدق التجربة عنصر مهم من عناصر الجودة الفنية ، ودليل قوى على خلود الشعر فى عالم الفن الشعرى المعتقد به ، ولن يتأتى ذلك للتجربة الشعورية حتى يبرزها الشاعر فى إطار فنى متكامل ، تتعاون العبارة والموسيقى والصورة فى تجسيده وملء قسماته ، وعندئذ تكون التجربة تجربة شعرية حية كاملة ، وقد اشترط الناقد الأدبى الحديث فى هذه التجربة الشعرية الكاملة أن تقوى على تأدية دورها فى التأثير على المشاعر ، وذلك باكتمال تصويرها الفنى من ناحية المصياغة والأسلوب ! لأن هذه المصياغة الفنية هى الطريق الى إبراز الصورة الخيالية والمشاعر النفسية بكل ما تحمل من إحياء وتأثير^(٣) .

٣ — الصورة الأدبية :

وعلى صوء ما ذهبنا اليه آنفا فان التجربة الشعورية تظل مختصرة فى أعماق الشاعر حبيسة بين جوانحه ، ولا يطلق عليها تجربة شعرية حقيقية ، حتى يلبسها الشاعر ثوبا من التعبير والتصوير يخرجها من أعماق الشعور الى عالم الواقع المحسوس ويبرزها فى إطار فنى بديع ، قوامه المصياغة الفنية المعبرة والعبارة الموحية المشعة ، التى تحمل بين طياتها معاناة الشاعر وما يجيش فى أعماقه من انفعالات وأحاسيس ثم الخيال الرحب المخفّن المجسد للتجربة تجسيدا حيا مثيرا ينمو فى الطراد واتساق ويجعل القارئ يحس كما أحس به المنشئ .

(٣) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٣٩ ، ٤٠ د/محمد نايل.

ولقد وفق ناجى أنى حد كبير فى انتخاب اللفظة وانتقاء العبارة والتوسع فى دلوניהما ، كما وفق فى تأليف الصورة الشعرية المجسمة لتجربته الشعرية وأحداثها ، تؤازره ملكته الفنية الصانع وموهبته الأدبية الفذة ، وخياله الرومانسى الفسيح — إلى جانب غزارة ثقافته وتعدد روافدها ومعايسته التجريبية وعمق تأثره بها ، حيث انتقى من اللغة ألفاظا عذبة موحية ، ذات جرس موسيقى مذهب عن أنبيه ونسجته وواعته وشجونه ، كما تخير من العبارات ما يقوى على الترجمة الأمينة عن معاناته النفسية •

كذا افتن الشاعر فى تأليف الصور الجزئية الرائعة ، من استعارات بارعة وكنايات لطيفة وتشبيهات مصورة ، مخالفا طريقة القدامى غالبا فى تأليف صورهم وطريقة تخيلهم وذلك — ككل الشعراء الرومانسيين — الذين توسعوا فى دلالات الألفاظ وإيجازاتها وفى شروب الخيال وفنونه •

ومن مجموع هذه الصور الجزئية طلع علينا الشاعر فى بعض المقاطع قصيدته هذه بدور كلية جديدة — تعاونت الظلال والألوان والأصوات والحركات والسكنات — فى إبراز خطوطها وتجليه قسماتها •

ولم يحل مقطع من مقاطع قصيدته من تلك الخصائص الفنية التى أومأنا إليها ، من عبارة موحية مشعة معبرة عن الجو النفسى الكئيب الذى أحاط بالشاعر ، ومن أخيلة جزئية مصورة لمعاذاة الشاعر وانفعالاته ، ومن صور كلية دالة على شخصية شاعر ممزق الفؤاد مكلوم العاطفة • وتأمل هذا المقطع الذى ترجم فيه ناجى عن حرمانه ويأسه وشقائه وتعاسته •

يارياحا ليس يهدا عسفها نضب الزيت ومصباحى انطفأ
وأنا أقتات من وهم عفا وأفى النعير لناس ماوفى

كم تقلبت على خنجره لا الهوى مال ولا الجفن عفا
واذا القلب على غبرانه تلمأ غار به الفصل عفا

نم تأمل قوذه هذا التصوير الشعري الذي صور فيه ناجي
معاناته النفسية وجوه الكئيب المشحون بالآلام والأحزان ، محبيه
حسن إم يزل ، في ضحاها ، وهو حزين كئيب يأسى على الركب الذي رحل
ولم يبق غير شيء من بقايا ذله ، ونجم حبه قد أفل وبقي شيء ، من
خيوط نوره ، وأسباح الملل ترقص من حوله فوق أشلاء هواه ، وتعمل
وتتوح فوق أحداث أمله الفاني المحطم ، وكلها صور توحى بالانقباض
والاكئاب والأسى •

وذلك في قوله :

أنت حسن في ضحاها إم يزل وأنا عندي أحزان الطفل
وبقايا الملل من ركب رحل وخيوط النور من نجم أفل
المح الدنيا بعيني سئم وأرى حولي أشباح الملل
راقصات فوق أشلاء الهوى معولات فوق أحداث الأمل

وتدرك جمال الصورة الشعرية وسحرها ونفاذها وقوة تأثيرها في
هذا المقطع الذي صور فيه شاعرنا جمال حبيه ونبله وجلاله وسحره
وحياه وثقته وحسنه الظالم وكبرياءه الشهي ، وهي صفات تعشقها
وهام بها وأسى على حرمانه وضياعها منه في قوله :

أين من عيني حبيب ساحر فيه نبل وجلال وحياه
واثق الخطورة يمشى ملكا ظالم الحسن شهى الكبرياء
عبق السحر كأنفاس الربى ساهم الطرف كأحلام المساء
مشرق الطلعة في منطقته لغة النور وتعبير السيماء

٤ — العاطفة وأثرها فى الصياغة الفنية :

عاطفة ناجي فى أطلاله هذه عذافة حارة ملتجة قوية نائرة اشتعلت جذوتها من بدء القصيدة حتى نهايتها ، لم تخدم ولم تسكن ولم تخفت حرارتها الا هى بعض المقاطع النى أذن الشاعر فيها للقضاء وأسلم نفسه للدر قانيا بتنهته راضيا بحظه — على الرغم منه — وهى عاطفة شاعر مكلوم مزق الهوى أحشائه وأبلى الوجد جسده ، وصار حبه طلالا دارسا تهيجته الذكرى الأليمة الممضة ، ولقد تنوعت انفعالات الشاعر وتلون أنيته فى كل مقطع من مقاطع قصيدته ، حيث بدأها بصراخ صار ونداء نادر وجهه الى فؤاده الممزق على هذا النحو :

يا فؤادى رهم الله الهوى كان صرحا من خيال نهوى

اسبقنى واشرب على أطلاله

واروعنى طالما الدمع روى ..

الخ المقطع

وفى المقطع الثانى يشكو شكاية مرة من حبه الضائع ، الذى عصفت به ريح الفراق ، تلك الريح الهائجة الشديدة التى اقتلعت جذور حبه من أساسها ويتحسر فى مرارة من نضوب هذا الحب وانطفاء مصباحه الذى كان يضىء عليه حياته ، كما ينضب زيت المصباح فينطفئ نوره ويبقى الكون من حوله يتخبط فى ظلام دامس وليل بهيم حيث يقول:

يا رياحا ليس يهدا عصفها

نضب الزيت ومصباحى انطفأ

وأنا أقتات من وهسم عفا

وأفجى العمر لناس ما وفى ..

الخ المقطع

وفى مقطع آخر نرى الشاعر يأسى على عرس غرامه الذى انقص
فى برهة وجيزة لم تطل معها نعمة البهجة وأنس العيش ، ويتحسر على
ماثم حبه الذى لأزمه بقية حياته وأسلمه الى قدر كئيب ، وهذه كلها
عواطف ملتاغته مشحونة بأنات الهوى وآهاته الدارغة وصرخاته الممزقة ،
وقوة العاطفة وحرارتها وصدقها فى مثل هذه التجربة التى عاشها ناجى ،
ذات أثر قوى فى انتقاء الألفاظ المعبرة عن الجو النفسى المشحون بالخبرة
الملء برنات الأسى ، وفى انتخاب العبارات الموحية بما يعانى به الشاعر
من ندم وأسف وحسرة ولوعة .

كقوله : — ربح الله الهوى — الصرح الهاوى — الأطلال —
الدمع روى — حديث الجوى — تواروا — انطوى — فى المقطع
الأول .

— رياح لا يهدأ عصفها — نضب الزيت — مصباحى انطفأ — اقتات
من وهم عفا — تقابلت على خنجره — غار به النصل — فى المقطع الثانى —
وهكذا فى بقية مقاطع القصيدة .

وعلى الرغم من قوة عاطفة ناجى وتدفق عباراته المترجمة عنها ،
نراه يهدأ فى بعض مقاطع تصيدته ويصور عاطفته فى معان متأنية
وصياغة رزينة ، ونفس هادئة بقسمتها قناعة بما قدر لها ، مؤملا جمع
المشمل فى تآباه بعد أن عز اللقاء فى حاضره ، ندرك ذلك فى قوله :

ياحبيبى كل شئ بقضباء ما بأيدينا خلقنا نعباء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فاذا أنكر خل خيله وتلاقينا أقاء الغرباء
ومضى كل الى غايته لا تقل شئنا وقل لى الحظ شاء

٥ - الموسيقى الشعرية :

عنى ناجى فى شعره بموسيقى قصيده فنوع فيها وافتن فى نلوين
أنغامها ولم يلزم نفسه بنظام القافية الرتيبة التى ألزم بها الشعراء
المحافظون أنفسهم ، ولكنه بنى قصائده على نظام المقطوعات غالبا ،
فنظم فى قالب رباعى - كقصيدة الأطلال هذه - كما نظم فى قالب
ثنوى «قصيدته - العودة - انى بدأها بقوله :

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء (٤)



واقف وفق ناجى فى تأليف نغمه الموسيقى فى قصيدته التى بين
أيدينا ، وداغها مى لحن عذب شجى ، جلبه الوزن الشعرى الرتيب
الذى أنقى ندى التصوير الشعرى جمالا وفنا ، وأحدث فى القارئ
تسورا وطربا ، وناووز الشعرى الذى صب ناجى ذى قلبه معانيه خاضية
فى الحكاية والأداء لا ينهض للتعبير عنها سواء من بين بحور الشعر
المسروفة وهو - بحر الرمل - الذى استأثره بهذه المقاطع الموسيقية :

فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن

وقد اهتدى اليه الشاعر بذوقه الفنى وحاسته الموسيقية ، حيث
صب دغقاته الشعورية فى تقاليد الموسيقى ، الذى نهض للتعبير عن
هذه الأحاسيس التى اختلجت فى أعماق شاعرنا ، وجاء تنويعه فى
قوائمه قصيدته ، فزاد من جمال الإيقاع الشعرى الذى يهز الوجدان
وقطرب له النفس •

(٤) القصيدة مثبتة فى ديوانه - وراء أنغام - وقد سقت بعض
آياتها فيما سبق •

ولم يلزم ناجي نفسه بوحدة القافية تخلصا من قيودها الرتيبة التي تجعل من الشاعر أسيرا لتلمات بعينها قد لا تعينه على تصوير مشاعره وترجمته ترجمة أمينة عن مكتون خواطره — وهذه الموسيقى التي تتأتى من الوزن والثقافية يطلق عليها « الموسيقى الخارجية » وهي النغم الشعري الجميل الذي يجلبه الوزن الشعري العروضي والابتاع الذي يحدثه القافية الموحدة أو المنة — كما ذكرنا — وذلك في مشورم النقد الأدبي الحديث •

وهناك موسيقى أخرى داخلية في القصيدة ، توافرت مغوماتها من الكلمات ذوات الجرس الموسيقى المبر عن جر الشعار النفسي المسنون بالألم والندم والأسى والحسرة على ما حل به من جراء تلك التجربة الغاسية الأليمة •

— ولالاننا اللغوية خصائص صوتية تحمل قدرة على حكاية المعنى وتصويره ، وترجع الى طبيعة حروف الكلمات ومخارجها في النطق من جهر وهمس وشدة ولين وغيرها ، وهذه الموسيقى التي تحدثها الكلمات هي التي عذاها النقد القديم في دعوته الى التلاؤم بين اللفظ والمعنى بحيث يكون للغزل ألفاظ غير ألفاظ الفخر والحماسة ولاهجاء ألفاظ غير ألفاظ العتاب والشكوى • ويمكنك أن تدرك هذه الموسيقى « الداخلية والخارجية » وأن تتذوق جمالها وأثرها في تصوير معاني الشاعر والترجمة عن أحاسيسه في قصيدة ناجي هذه من أولها حتى نهايتها ، ونكتفي هنا بسوق هذا المقطع الذي عبر فيه ناجي عن حبه السامي التسامخ ، وعن كبرياء هذا الحب وعظمته وما أحدثه في نفس كل منهما من مجد وشموخ ورفعة وشمم ، وقد تعاونت الكلمات بما لها من جرس موسيقى ورنين هاديء وإيحاء مثير وتصوير رائع وخيال مفتن في رسم صورة ننية جميلة معبرة عن هذا الحب التسامخ الابى •

يقول ناجي مخاطبا حبيبته :

لست أنساك وقد أعريتني بالذرى التسم فأدمنت الطموح
أنت روح فى سمائى وأنا لك أعلو فكأنى محض روح
يالهيا من قمم كتابها نلتلقى وبسرينا نبسرح
نستشف الغيب من أبراجها ونرى الناس ظللا فى السفوح

فكأن لفظة من الفاظ هذا المقطع لها جرس خاص ورنين موسيقى ،
يحمل معنى الرفة والسمو واللوعة والشجن ، وهو ما تتميز به حب ناجي
كما يناق به هذا المقطع من قصيدته .

٦ - الوحدة الفنية فى القصيدة :

الوحدة العضوية التى نادى بها النقد الأدبى الحديث بوجوب تحقيقها
فى القصيدة الغنائية الحديثة ، وعاب على شعرنا العربى القديم وما جرى
على منهجه من الشعر الحديث خلوه من هذه الوحدة العضوية - لا يمكننا
على الإطلاق أن نحكم بوجودها فى قصيدة ناجي هذه ، تلك التى صب
معانيها فى قالب مقطعى ، يتكون كل مقطع فيه من أربعة أبيات ، تخالف
فى رويها ما تنبأها وما بعدها - كما رأينا - ولا يمكننا كذلك أن نجزم
بأن الشاعر صب دفقات شعوره فى ترابط فكرى منسجم ، بحيث تسلمنا
كل فكرة عبر عنها فى مقطع شعري الى فكرة تالية متآخية مترابطة ،
بحيث لو قدمنا هذه الفكرة على سابقتها انفرط العقد المنطقى المتآلف
فى تآخ والترابط فى انسجام ، لا يمكننا أن نذهب الى ذلك ، وان لم
ننف تحقق الوحدة الفنية فى القصيدة جمة عن الترابط الشعورى
والعاطفى فيها : اذن فوحدة القصيدة هنا تقوم على وحدة الشاعر
ووحدة الأجاسيس ووحدة الجو النفسى المحيط بالشاعر ، والسر فى
عدم توافر الوحدة العضوية التى ألح العضويون من نقادنا المحدثين

على حتمية تحقيقها في القصيدة الحديثة أن « ناجي » ينتمي الى شعراء المذهب الرومانسي الذي عني باذات ومشاعرها والطبيعة ومفاتها تلك التي يتغنى بها الشعراء ويلتمسون اللذة والجمال في مسارحها حتى ينعموا بالحرية التي حرموها ويحسوا بذاتيتهم التي طالما افترقدوها^(٥) .

وعلى الرغم من قيام هذا المذهب الرومانسي على أنقاض المذهب الكلاسيكي ، فان وحدة القصيدة عند شعرائه ظلت كما كانت عند شعراء المدرسة الكلاسيكية ، تعتمد على قدر من الترابط الذي يصحح وضع الفكرة الى جانب الفكرة والخاطرة مع الخاطرة بالصورة التي تتوارث فيها الخواطر والصور في عقول الناس لأدنى «ملاحظة»^(٦) .

(٥) راجع : اتجاهات وآراء في النقد الحديث ص ٦٨

(٦) المرجع نفسه ص ٦٨ ، ٦٩ .

— ناجى ومذهب الأدبى :

ولد إبراهيم ناجى فى مدينة القاهرة فى ١٨٩٨/١٢/٣١ م لأبوين متوسطى اليسار ، وورث عن أبيه حب العلم والدأب على القراءة وحب اللغات ، فأثقن العربية والانجليزية والفرنسية •

التحق ناجى بالمدرسة الابتدائية وشدته القراءة منذ صغره ، فكان يطالع فى مكتبة والده ما تقع عليه عيناه من كتب فى الأدب الذى شغف به وبقراءته منذ صغره ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية التحق بكلية الطب وتخرج فيها طبيباً ، وكن دراسته العلمية لم تصرفه عن الأدب بل ظل يتعشقه ، وراح يقرض الشعر على طراز غير مألوف بعد أن قطع شوطاً فى محاكاة الشعراء القدامى الذين قرأهم وتأثرهم فى مطلع حياته الأدبية ، وقد بدأ ناجى حياته الأدبية يتزود من شعر مدرسة الأحياء والبعث وينسج على غرار شعرائها ، ثم نسه شعر مطران وأعجب بوجدانيته فيه ، وقاده ذلك الى أن ينهل من المعين الغربى الذى نهل منه مطران : فأقبل على شعر المذهب الرومانسى الغربى الذى كان يتفق مع هواه وأحلامه بالحياة وبالحب •

وأعجب ناجى بهذا المذهب الرومانسى الذى يقوم على تصوير خلجات النفس ازاء الحب والطبيعة ، دون عنايته بتصوير العواطف القومية والاجتماعية وغيرها مما تمتلئ به حياة الناس من حولهم ، وربما كان ناجى هو الشاعر الوحيد بين شعرائنا المعاصرين ، الذى نظر الى الشعر على أنه تعبير عن وجدان صاحبه ، وتصوير لهوممه وأشجانه ومشكلاته الذاتية دون النظر الى تعبيره عن الوجدان الجماعى — كما فعل كثيرون من معاصريه •

ولعل معرفة ناجى بأداب الفرنسيين وقراءة آثارهم فى وقت

مبكر من حياته هي التي هيأت له ذاك النزاع فى شعره الذى ظل ينميه طوال حياته الأولى •

وشخصية ناجى واضحة فى شعره تمام الوضوح بجميع ملامحها العاطفية وقسماتها الوجدانية ، وهى شخصية شاعر جريح يئن دائما ويشكو أغلات سعادته منه بصورة محزونة • وفى دواوينه الأربعة التى خافها لا يكاد يخرج فيها عن تصوير هذه المعانى التى أوقف شعره عليها ، وهذه الدواوين هى : وراء الغمام ، ليلالى القاهرة ، معبد الليل ، الطائر الجريح •

وقد نوع ناجى فى بناء قصيده وموسيقاه فنظم الرباعى والمثنوى كما نظم فى قالب الشعر العمودى • وأتى فى شعره بتعابير وصور جديدة كان فيها متأثرا بشعراء المذهب الرمزي الفرنسي كبودلير وغيره •

وناجى يمثل فى شعره جماعة أبولو التى انضم اليها منذ نشأتها وعمل وكيلا لها مع مؤسسها - أحمد زكى أبو شادى ونادى معه بالدعوة الى أن ينفلت الشعر من قيوده ، بحيث يكون شعرا وجدانيا خالصا يترجم عن حياة قائله ويصور ذاته ووجدانه •

وبعد أن انضم الى جماعة أبولو التى أسست ١٩٣٢ وجد جوا أدبيا يرضى طموحه وتطلعاته ، فظل ينشر فى مجلتها شعره الوجدانى الذى جاشت به عاطفته ، ولما هاجر أبو شادى الى أمريكا وانتهت أبولو بهجرته ، لم يتوقف ناجى عن نشاطه الأدبى ، بل زاد حنينه الى الشعر والأدب من جديدة ألف « رابطة الأدب » بالاشتراك مع اخوان له ، وانشأ مجلة « حكيم البيت » •

كما أسهم فى فن القصة ترجمة وتأليفا وترجم أهازيج شكسبير وشعر بودلير وبعض المسرحيات ومن أشهر ترجمته « الجريمة والعقاب » لدستوفسكى •

كل هذه الأعمال وهو طبيب يتدرج فى سلك الوظيفة حتى رقى
الى رئيس القسم الطبى بوزارة الأوقاف •
وقد توفى ناجى فى مارس ١٩٥٣ م •

ومن نماذج شعره قوله من قصيدة — العودة — :

رفرف القاب بجنبى كالذبيح وأنا أهتف : ياقلب انتد
فيجيب الدمع والماضى الجريح لم عدنا ؟ ليت أنا لم نعد
لم عدنا ؟ أو لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم

ومنه قوله من قصيدة — خواطر الغروب :

قلت للبحر اذ وقفت مساء كم أطلت الوقوف والاصفا
وجعلت النسسيم زادا لروحي وشربت الظلال والأضواء
وكان الألوان مختلفات جلت منك روضة غناء
مزى عطرها فأسكر نفسى وسرى فى جوانحي كيف شاء

٧ - ميخائيل نعيمة - وقصيدته - النهر المتجمد :

- ١ -

هو واحد من أدباء المهجر وشعرائه ونقاده المبدعين ، ولد في لبنان عام ١٨٨٩ م ، ثم التحق بمدرسة روسية كانت قد أنشئت حديثاً في بلده ، ثم اختير لإكمال تعليمه في دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم سافر في بعثة دراسية إلى روسيا على نفقة الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية ، وطالع الأدب الروسي باهتمام وتأثر به .

وعاد ميخائيل نعيمة إلى لبنان ، ومنها إلى ولاية واشنطن ، حيث وإلى دراسته في إحدى مدنها وحصل على إجازة في الحقوق وإجازة أخرى في الأدب عام ١٩١٦ ، وخدم في الجيش الأمريكي حيث عمل في صفوف القتال في فرنسا ، وقد كره الحرب وندد بها طوال حياته .

ثم عاد إلى الولايات المتحدة ، واستغل بالتجارة ، والأدب ، وكتب في مجلة « الفنون » - التي كانت تصدر في نيويورك بالعربية - فصولاً في الأدب والنقد ، وفي نيويورك اتصل بجبران ، ولما كانت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ ، كان جبران رئيساً لها ، ونعيمة مستشاراً لها ، ومن أعضائها إيليا أبو ماضي ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وعبد المسيح حداد .

وسجل نعيمة في صدر قانون الرابطة « ان هذه الروح الجديدة التي ترمى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني ، لحرية في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهي أمل اليوم وركن الغد » .

وفي عام ١٩٣٢ عاد ميخائيل نعيمة إلى وطنه لبنان ، حيث عكف على الاطلاع والكتابة ونظم القصائد . ويعمد كتابه « الغربال »

من أمهات كتب النقد والدعوة الى التجديد ، وقد كتب العقاد مقدمة طبعته الأولى عام ١٩٢٣ ، ولنعيمة ديوان « همس الجفون » .

ومن كتبه « زاد المعاد » وجبران خليل جبران ، وكرم على درب ، وفى مهب الريح ، وصوت العالم والمراحل ، وغيرها من المؤلفات التى يعد نعيمة بها قمة فى الأدب المهجرى ، وعلماء شامخا فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث .

وقد قيل عنه : « نعيمة هو أحد رواد ثورة التجديد فى الأدب العربى الحديث ، زعيم الحركة المهجرية فى تحرير اللغة ونقلها من الجمود الى حياة نشطة ، ينبض فيها الأدب بالأفكار والمعانى ، ولا يئن تحت ثقل ما يرنديه من الأزياء اللغوية .

مذهبه النقدى الجديد فى كتابه « الغربال » الذى صدر عام ١٩٢٣ . لا زالت له جودته ، ولا يزال يؤثر فى النقاد والمفكرين « (١) » .

- ٢ -

ومن نماذج شعر نعيمة قوله :

١ - أخى ان خبج بعد الحرب غربى بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا ، وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت لمن دانا

بل أركع صامتا مثاى بقلب خائس دام

لسبكى حظ موتانا (٢)

(١) راجع : قصة الأدب المهجرى ٧٨ وما بعدها د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

(٢) ، (٣) ، (٤) المرجع السابق ص ٧٧ ، ٧٨

٢ - ومن قصيدته « الطريق » وهي قصيدة مملوءة بالحيرة ، يقول :
نحن يا ابني عسكر تد تاه في قفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق ؟
فما تنبرنا في جهات القفر نستجلى الأثر
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتي الحجر
وسنبقى نفحص الآثار من هذا وذاك
ريثما ندرك أن الدرب فينا لا هناك
وسنبقى في انتقال وشقاء وعذاب
وصعود وهبوط وذهاب وإياب
وسنبقى نهجع الليل وفي الصبح نفيق
ريثما نلقى حنانا ، ريثما نلقى الطريق (٣)

٣ - ويقول من قصيدة أخرى له :
ذمك الأيام لا ينفعك فهي لا أذن لها تسمعك
لا ولا عين نرى عقربا في دياجير الأسى تلتصعك
لا ولا قاب يبرق وان جف من طول البكا مد معك
عندها سيان يا صاحبي أزهرت أم أقفرت أربعمك
ذمك الأيام لا ينفعك انما الأيام لا تسمعك
فهي منك الظل يا صاحبي عجا ظاك كم يخدعك (٤) .

٤ - ومن قصيدته « لست أخشى » يقول :
سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر
فاعصفي يا رياح وانتحب يا شجر

واسـبـحـى يا غـيـوم واسـبـحـى يا غـيـوم
وأقـصـفـى يا رـعـود وأقـصـفـى يا رـعـود
سـبـقـف بـيـتـى حـدـيد سـبـقـف بـيـتـى حـدـيد
مـن سـرـاجـى الخـمـائـل مـن سـرـاجـى الخـمـائـل
كـلـمـا الـيـل طـال كـلـمـا الـيـل طـال
وإذا ما الفـجـر مـات وإذا ما الفـجـر مـات
فأخـفـى يا نـجـوم فأخـفـى يا نـجـوم
واهـطـطـى الـى بالمـطـر
لـسـت أخـشـى خـطـر
رـكـن بـيـتـى حـجـر
أسـبـقـمـد البـحـر
والظـلـام انـتـشـر
والنـهـار انـتـحـر
وانـطـفـأ يا قـمـر

٥ - ومن قصيدته « هل من الأمواج جئت » يقول نعيمة :

ان رأيت البحر يطغى الموج فيه وينور
أو سمعت البحر يبكى عند أقدام الصذور
ترقبى الموج الى أن يحبس الموج هديره
وتتأججى البحر حتى يسمع البحر زفيره
راجعا منك اليه

هل من الأمواج جئت ؟

ان سمعت الرعد يدوى بين طيات الغمام
أو رأيت البرق يفرى سيفه جيش 'الظلام'
ترصدى البرق الى أن تخطفى منه ادناه
ويخف الرعد لكن تاركا فيك صداه

هل من البرق انفصلت ؟

أم مع الرعد انحدرت ؟

..... الخ

(٥) ، (٦) المرجع السابق ص ٨٩ ، ٩٠

وثوره ميخائيل نعيمة على الشعر التقليدي جعلته يبتدع القوافي
المتنوعة ذات الوقع الموسيقى والتي كانت دفعا للشعر العربي الحديث •

ومع هذا فان نعيمة مجدد في الشعر الحديث ، حيث خرج على
الأوزان التقليدية في الشعر ، وكان أحيانا يتقيد بأنقافية في كل بيتين
وليس في القصيدة كلها ، وقد أدخل كلمات جديدة في قصائده ، واتخذ
موضوعاته مما له صلة بالحياة مع مراعاة وحدة القصيدة •

وقد ثار نعيمة على قيود اللغة والمتحذلقين فيها ، قال عن القصد
من الأدب انه « الانصاح عن عوامل الحياة كما تنتابنا من أفكار وعواطف ،
وان اللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة ، اهتدت اليها البشرية
للافصاح عن أفكارها وعواطفها ، وان للأفكار والعواطف كيانا مستقلا
ليس للغة •

فهى أولا واللغة ثانيا ، ان كل القواميس وكتب الصرف والنحو
فى العالم لم تحدث ثورة ولا أوجدت يوما أمة ، لكن الفكر والعاطفة
يجددان العمام فى كل يوم • »

وقد أطلق الدكتور مندور على شعر نعيمة « الشعر المهموس »
لأنه يقع فى النفس موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس ، يؤسس
النفس ويشعرها بالواجب الوطنى همسا دون خطابة •

وكلمات الهمس فى رأى مندور هى « احساس بالأدب المصنوع
من الحياة كأنه قطعة منها » وهذا رأيه فى غالبية شعر المهجرين •

وسوف نتناول بالدرس والتحليل قصيدة من شعر ميخائيل نعيمة
هى قصيدة « انهر المتجمد » لنتبين مظاهر التجديد الذى أدخله نعيمة
على شعرنا الحديث من خلالها •

— قصيدة النهر المتجمد —

يقول نعيمة :

يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخدير
أم قد هرمت وخار عزمك ، فانشيت عن المسير
بالأمس كنت مرنما بين الحدايق والزهور
تقلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
واليوم قد هبطت عليك سكينه اللحد العميق
بالأمس كنت اذا سمعت تنهدى وتوجعنى
تبكى ، وها أبكى أنا وحدى ولا تبكى معى
ماذا جرى بعدما قد كنت تهزج فى الصباح
هل أجمدتك كآبتى ، وسمعت ندبى والنواح
ما هذه الأكفان أم هذى قيود من جليد
قد كبلك وذالك بها يد البرد الشديد
ها ذورك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال
يجثو كئيبا كلما مرت به ريح الشمال
تأنيه أسراب من المربان تنعق فى الفضا
هكأنها ترثى شبابا من حياتك قد مضى
أكن سيفصرف الشتاء وتعود أيام الربيع
فتذك جسمك من عقل مكنته يد الصقيع

وتكر موجتك النقية حرة نحو البحار
 حباى بأسرار البقا ، ثملى بأنوار النهار
 وتعود تبسم اذ يلاطف وجهك الصافى النسيم
 وتعود تنسبح فى مياهاك أنجم الليل البهيم
 قد كان لى يا نهر قلب ضاحك مثل المروج
 حر كقلبك فيه أهواء وآمال تموج
 قد كان يضحى غير ما يمسى ولا يشكو المثل
 واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل
 يا نهر ذا قلبى أراه كما أراك مكبلا
 والفرق أنك سوف تتشبط من عقالك وهو لا *

القصيدة - تحليل ودراسة ونقد *

أولا : الاضمون والأفكار :

تعد هذه القصيدة من شعر الوجدان الذاتى الذى يعنى بتصوير
 مشاعر ذويه وتجسيم عواطفهم ، وهى فوق ذاك رومانسية الدلابع
 تمثل خصائص المذهب الرومانسى فى مضمونه وأسلوبه وصياغته
 وصوره وموسيقاه ، وهذا المذهب كما تعلم مضاد الكلاسيكية ، وقد
 فام على أنقاضها منذ أواخر القرن الثامن عشر فى أوروبا ، وهو مذهب
 ابتداعى تجديدى تحررى ، يقوم على الفلسفة العاطفية ، ويعتد
 بالعاطفة والقلب لا العقل والفكر ، وينشد الجمال لا الحقيقة ، ويتنصر
 للفرد لا للمجتمع *

وخصائص هذا المذهب الأدبي : اتجاهه الى التجربة الباطنية ،
واسنيحاؤه التجارب النفسية لا الخارجية ، واصطبائه بالداتية والفردية ،
وانطبائه بالقائمة والروح الغيبى والصوفى ، وعدم التعقيل ، واطلاق
العنان لسرود العاطفه وجموح الخيال ، كما يتسم بالهروب من دنيا
الناس الى الطبيعة والاندماج فيها ،

وأدب هذا المذهب تجلله الكآبة ، ويسوده التشاؤم والقلق ، كما
أنه يهتم بالجماليات ويميل الى الابتكار ويتسم بالزحر الأسوبى^(١) .

ولقد تأثر أدباؤنا العرب كثيرا بهذا المذهب الرومانسى النربى ،
وظهر هذا التأثير فى مضامين أدبهم وأشكالها واتجاهاتها كالذى تراه
عند مطران ومدرسه الديوان وجماعة أبولو .

وأدباء المهجر الذين جنحوا الى التجديد وتجاوبوا معه لا سيما
أدباء المهجر الشمالى ومنهم — ميخائيل نعيمة — صاحب هذا النص
الرومانسى فى مضمونه وقالبه وصوره وموسيقاه وتجربته .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بسؤال النهر عن سير الكآبة انتى جللته
والأسى الذى غشيه والهم الذى انتابه ، وكأنه كان يحس بهذه المشاعر
كلها ، تلك التى خلعتها على النهر المنجمد ، الذى نصب مأوه ونوقف
جريانه وانقطع خريره ، واكتسى بحلة كئيبة عابسة بعد أن متهللا فرحا
منطلقا .

ثم يذكر النهر بأنه بأنه كان بالأمس مرنا يشدو بين الحدائق الغناء
والزهور الجميلة بلحن عذب ينم عن انطلاق ومرح ، وقد كان الشاعر بأيته
باخيا فيرده مسرورا ضاحكا ، ويشاطره آلامه وأحزانه ، بل ويتجاوب
معه تجاوبا صادقا يبعده عن همومه وينأى به عن أحزانه .

(١) الأدب المقارن ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ د / حسن جاد .

ثم يتسائل الشاعر في كآبة وجو من الأسى والضيق • ماذا جرى
لك أيها النهر حتى صرت جامدا • ناضبا وصامتا كئيبا ، بعد أن كنت
تهزج في الصباح بأهازيج الأمل والمرح والبشر ! هل أجمدتك كآبتي
وسمعت بدبي ونواحي فطفقت تشاركني ذلك الدب وتقاسمي هذا
العويل والنواح ؟

أو أن الحوائب التي أصابت الشاعر وأخرسته عن النطق وكبلته
عن المسير ، أصابتك أيها النهر وكبلتك وأخرستك ؛ ويمضي الشاعر في
وصف الصور الكئيبة الحزينة التي أحاطت بالنهر ، وكأنها هي الأخرى
قد أصابها ما أصاب النهر فجذعت جزعا لا مزيد عليه وكيف لا ؛ وحياة
النهر حياة لها ، وبهجته ومرحه مرتع لها •

شجر الصفصاف قد تناثرت أوراقه بعد أن ذبلت ويبست ، وابطأ
جماله بعد أن كان يشع من أشجاره ، وأسراب الغربان هبت ، مفزوعة على
هذا الشجر الأخضر الذي كان يكسو جوانب النهر وشطأته ويؤلف مع
مياهه منظرا رائعا تتسود له الطيور ، فأتت الغربان تنعق في الفضاء ترني
شباب حياة النهر الذي مضى في أصوات كئيبة مزعجة •

ثم يغريه بالربيع الذي ستعود أيامه باسمه مشرقة بعد أن عبست
به أيام الشتاء ولياليه ببردها القارس ورعدها الشديد وعواصفها المدمرة ،
سيجيء الربيع ليذكرك قيود النهر ، ويعيد جريانه ويرد إليه حريته التي
حرمها وابتسامته التي فقدتها ، حيث يزدهر الصفصاف من حوله ، وتغرد
الطيور ، ويلطفه النسيم •

ويوازن الشاعر في نهاية قصيدته بينه وبين النهر ، فقد كان قلبه
يموج بالأمل كأمواج النهر ، ويضحك للحياة كضحكات المروج ، ولكنه
الآن كالنهر تتجمد فيه أمواج الأمل ، غير أن النهر سينشط من عقاله ،
أما قلبه هو غسيطل حزينا لا يعود الى ابتهاجه ، هذه هي الأفئدة التي
تناولتها القصيدة ، وهي كما ترى تحكي تجربة نفسية للشاعر ، وتصور

جاء الأسى التابع من أعماقه ، وقد انعكست أحاسيس الشاعر على الطبيعة من حوله حيث تجاوزت معه وشاركته آلامه ، وهذه هي الأفكار الرومانسيين في كثير من موضوعات شعرهم .

٢ - الصور الشعرية :

من خصائص التصوير الشعري عند الرومانتيين أن الشاعر يستعين على جلاء الصور في الشعر بالطبيعة ومناظرها ، على أن يراعى صنف التشابه التي تربط ما بين صور الطبيعة وجوهر الأفكار والمشاعر ، بحيث لا ينفك هذا التشابه عند حدود المظاهر الحسية .

وفي هذا رجوع إلى مبادئ الطبيعة في إخراج الأفكار الذاتية صوراً طبيعية ، وإذن على أن يحتفظ الفنان أو الشاعر بأصالته في البحث عن الصور الطبيعية التي تمثل أذكاره ، وتربط ما بينها عضواً حول موضوع واحد .

وهذه الصور عند الرومانتيين تمثل مشاعر وأفكاراً ذاتية . إذ يخاطب الرومانتيون مشاعرهم بالصور الشعرية ، فيناظرون بين الطبيعة وحالاتهم النفسية ، ويرون في الأشياء أشخاصاً تنفخ وتأسى وتشاركهم عواطفهم ، وينفرون من المناظر الطبيعية التي تبدو كأنها لا تشاركهم شعورهم . وفي أشعارهم تبدو ذاتهم محور تصويرهم « (٢) » .

وهذه القصيدة التي بين أيدينا حافلة بعنصر التصوير الشعري الذي جسّد أذكار الشاعر الذاتية تجسيدا حيا ، فمما لا شك فيه أن الشاعر لم يحفل بالنهر ولم يهتز له ، ولكنه حفل بذاته المكتئبة وما خالطها من جو الأسى والكآبة وراح يعكس هذه المشاعر ويخلع تلك الأساس على النهر الذي تخيل أنه أصيب بما أصيب به الشاعر ، انطلاقاً من

(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٣٩٢ د/محمد غنيمي هلال .

الذرة الرومانتيكية في الارتقاء في أحضان الطبيعة وفرارهم اليها
هروبا من عالم الواقع الذي ضاق بتمردهم وعجز عن أن يحقق لهم
أمانهم .

ويمكنك أن تنعم النظر في القصيدة من أولها حتى نهايتها ،
لتتعرف ، على مدى اعتماد الشاعر في نقل تجربته النفسية والذاتية الى
وجدان قارئه معتمدا على الصور الجزئية — المجازات والتشبيهات —
المتلاحقة ، والتي تكون في مجموعها صورة كلية جسدت كآبة الشاعر
وجسمتها .

وتذوق مسمى المقطع الأول من القصيدة ، الذي ناجى فيه الشاعر
النهر مناجاة صديق حميم هرع الى صديقه يسأله عن علته وما دواء
من كرب ، ويأسى لهذه العلة التي أصابت صديقه ويستفسر في لهفة
وفي دهشة عن عواملها وأسبابها ، ثم يأسف على حاله التي آل اليها بعد
أن كان في نعيم وفي رغد ، وهو إنما فعل ما فعل أثقته في صديقه الذي
يسر اسروره ويحزن لمصابه ويشاطره آلامه ويقاسمه همومه .

وهذا ما اعتمد عليه الشاعر هنا ، حيث راح يناجى النهر مستفهما
منه — هل نصبت ، مياهه فائقة طع عن الخير !

أم أنه قد هرم وشاخ ، صار عزمه وانهدت قواه فمجز عن المسير !

كنت بالأدس تترنم وتهزج بأغانى المرح وأنشيد السرور منقلا بين
الحدائق تساديا بين الزهور . وهذه الصورة تنقلك الى الجو النفسى الذي
كان يحيا بالإنسان ، وترسم لك مشاعر صاحبها حيث تجهم به يوهه
بعد أن ابتسم له أمس . فراح ينقل اليك أحاسيسه في صور متلاحقة
تعبر عن جو الأسى الذي يخالطه من تنهد وتوجع وأنين وهذه الصور
الحزينة رسمها الشاعر للنهر المتجهد الذي يحكى تجهد الشاعر في آلامه
في بقية مقاطع القصيدة .

٣ - الوحدة الفنية فى القصيدة :

ومن السمات الفنية لهذه القصيدة أنها تعبير عن تجربة شعرية لدى الشاعر ، تحوالت الى تجربة فنية ، توافر لها الصدق الفنى ، وحققت فيها وحدة الموضوع والوحدة العضوية •

وتعنى وحدة الموضوع ألا يتناول الشاعر فى قصيدته أكثر من غرض شعري واحد ، بحيث لا تجمع القصيدة بين الغزل والمدح أو الفخر مثلا - كما كانت القصيدة العربية القديمة - التى اعتمدت وحدتها الفنية على الرباط الذهني والنفسي لدى الشاعر ، وبذلك جمعت أكثر من غرض شعري واحد ، مما أدى الى تفكك وحدتها وعرضها لمواجهة النقد العنيف فى عصرنا الحديث عند كثير من النقاد •

ونعنى بالوحدة العضوية أن تكون القصيدة عملا متكاملًا ، وبنية عضوية حية ، تترابط صورها ، وتتفاعل عناصرها تفاعل الأعضاء المختلفة فى الجسم الحى •

وقد قاس العقاد هذه الوحدة بالأبيات ونظامها وترتيبها •

فالبنية الحية للعمل الفنى لا تقبل تغيرا فى وضع الأبيات ، ولا حذفًا منها ، ولا زيادة فيها ، بحيث لو حدث شيء من هذا اختلت وحدة القصيدة الفنية ، وليست كذلك القصيدة العربية القديمة التى لو ندمت فيها بيتًا على بيت أو أخرته أو حذفته ، لم تتسعر باذلال فيها ، لأن الوحدة فيها محصورة فى البيت الواحد •

وقصيدة ميخائيل نعيمة هذه : توافرت فيها الوحدة الموضوعية والعضوية والشعورية والفنية ، فهى - كما ترى - عمل فنى متكامل ، له أوله ، وله آخره •

موضوعها واحد أنت جزئياته في تسلسل منطقي ، بحيث ينمو كل بيت نموا عضويا ، ملا نستطيع تقديمه على غيره ، ولا تأخير عنه ، ولا حذفه ، والا ظهرت القصيدة مشوهة مبتورة ، ولم تسر الوحدة فيها سيرها •

كذا نلاحظ أن الوحدة النفسية والفنية فيها متكاملة ، فجو الأسي يسودها كلها ويشيع فيها •

والأسلوب يوائم التجربة ويواكبها بموسيقاء الهادئة الملائمة لجو الأسي ، والصور الحزينة التي يرسمها الشاعر للنهر في جموده تعطى جوا نفسيا منسجما •

والانتقال من بيت الى بيت في القصيدة انتقال طبيعي ، ينسق مع الجو الشعوري العام للقصيدة ، بحيث يصل المقارئ الى آخر بيت فيها ، وقد أحس أن الشاعر قد أفرغ تجربته كلها في جو شعوري واحد لا فراغ فيه ولا ذبذبة (٢) •

(٢) راجع شعر المهجر د/كمال نشأت — ص ٧٩ وما بعدها •
وراجع في التعرف على الشاعر : ١ — أدبنا وأدباؤنا في المهجر الأمريكية — جورج صيدح — وقصة الأدب المهجري د/خفاجي وغيرهما •

القسم الثاني

منتخبات من الفنر

—

١ - « الرسالة البكرية » لحفنى ناصف ١٨٥٥ م - ١٩١٩ م

النص :

كتب حفنى ناصف رسالة الى السيد / محمد توفيق البكرى -
فى العتاب منها قوله :

« .. زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى الى لقائه كحرصى على
بقائه ، وكلانى بشهوده كسغفى بوجوده ، فقد بعد - والله - سهد هذا
التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته مى حرمان ،
فسألت عنه ، فقيل لى : انه خرج لتشيع زائر ، وهو عما قليل حاضر ،
فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل
الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارنج صحن الدار ، وظهر الاستبشار
على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى موكبه ، وجلال محنده ومنصبه ،
فقمنا لاستقباله ، وهينما بكماه ، فمر يتعرف على وجوه القوم حتى
حاذانى ، وكبر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومر على يسارى ، وأخذ
فى السلام على جارى ، وجرى السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ،
وأنا فى هذه الحال أوهم جارى ، أننى فى دارى ، وأظهر للناس أن
شدة الألفة تسقط الكلفة ، ومر السيد من أمامى بعد ذلك ثلاث مرات ،
ومن الغريب أنه ام يتدارك ما فات ، وأغرب من ذلك أنه استخلص
لنفسه أربعة ، ودعاهم الى الحجرة فدخلوا معه ، فلم يبق الا القيام ،
والامساك عن الكلام . »

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكمو على اذن حرام

ولا أدعى أننى أوازي السيد - صانه الله - فى علو حصبه ،
أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى منصبه ورتبه ، وانما أقول :
ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود

الاولاسى على مائدة الافطار ، ويبين من يزوره للسلام وتأيد جامعة
الاسلام (١) ... الخ » •

— ٢ —

— تحليل ونقد —

هذا النموذج الأدبى من النماذج التى عرفتھا آدابنا العربية القديمة
وهو — أدب الرسائل — والرسائل نوعان :

رسائل ديوانية ، وهى ما تصدر عن الدواوين أو ترد إليها خاصة
بشئون الدولة وصوالحها •

ورسائل اخوانية ، وهى ما يدور بين الأفراد فى نغزية أو تهنئة
أو عتاب وشوق وغيرها وهى ادخل فى باب الأدب أما الرسائل الديوانية
فظلت فى عصور الضعف والانحطاط متخلفة هامة — شأن الآداب
العربية جميعها — الى أن دبت روح النهضة الحديثة فى الآداب الحديثة
بفعل بعث القديم وأحيائه والسير فى دربه والنسج على مواله ،
وكان حظ الرسائل الديوانية من هذا البعث والأحياء عظيما ، حيث
نهضت وتطورت على يد الديوانى الكبير عبد الله فكرى •

على أن هذا التطور الذى أصابته الرسالة الديوانية لم يتمثل
فى الشخص من قيود الصنعة والبديع والسجع ، وإنما تمثل فى انهوض
باسلوبها من لضعف، والركاكة والابتذال والعجمة والخطأ اللعوى وما الى
ذلك مما جعل أسلوب هذه الرسائل ركيكا هابطا حتى فى عصر محمد
على وما تلاه الى أن نهض به عبد الله فكرى — كما قلنا سابقا — •

(١) نثر حفى ناصف ص ٨ وما بعدها ، وراجع كتابنا — تطور
النثر الفنى فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ١٢٢ وما بعدها •

أما الرسائل الاخوانية ، التي كان يبعث بها أديب الى أديب ،
والتي تعد مظهرا من مظاهر التجديد الأسلوبى والتأنق التعبيري ،
والتفنن فى صروب الخيال ، فانها قد تطورت فى أسلوبها كما تطورت
فى أغراضها ومضامينها ، حتى أحلت محل الشعر عند بعض الكتاب
كعبد الله فكرى وعبد الله النديم وحفنى ناصف وغيرهم من كتاب القرن
الماضى وهذا القرن •

كقول عبد الله فكرى فى رسالة وصفية — اخوانية — بعث بها
من الأستاذة الى صديق له يصف يوما اشتد فيه البرد وغزر المطر وكثف
الضباب منها قوله :

« كتبت اليك والأمطار ساجمة بطلها ووبلها ، وعساكر البرد والبرد
هاجمة بخيلها ورجلها ، والسماء منلعة بأذيال السحاب ، وكأن الشمس
خافت من الطل فتوارت بالحجاب ، والجو مسكى الرداء ، عنبرى
الأرجاء ، وكأنه وعليه ثوب الغيم مزورة قد وجل من صولة البرد فلبس
فروة السمورة ، وأناخ الغمام على الأفق بكلاكله ، وهز من البرق
بيض مناصله ، ونشر فى الجو طرائق مطارفه ، وجاد على الأرض بنليده
ومطارفه ، وثقل على كاهل الهواء ، كالطير بل جناحه بالماء ، وقرب
حتى كاد يمسك باليدين ، ويعتصر بالراحتين ... » الخ •

ومثل هذا النموذج الأدبى يطلعنا على مدى نهضة النثر النفسى
فى العصر الحديث ، حيث اضطلع فى بعض فنونه وألوانه بمهمة
الشعر وغايته ، وانسمت زماذجه بما يتسم به الشعر فى كثير من عناصره
الفنية ، من انتقاء الألفاظ وجمالها ، وقوة نفاذها وتأثيرها ، ومن
التوسع فى صروب المجازات والتفنن فى الأخيلى ، بالإضافة الى تذوينة
موسيقاه وروعته ، هذا الى جانب احتفاله بالصنعة غير المتكلفة فى
كثير من مواطنه •

وهذا اللون من النشر الذى بعثت فيه الحياة من جديد ، قد أعاد الى الأذهان ما انظر من كتابات السابقين كابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان ومن على طريقتهم من الكتاب السابقين الذين نهضوا بالنشر الفنى فى عصور ازدهاره نهوضا فائقا .

ويعد احياء للكتابة الفنية القديمة نهض به كتاب عصر النهضة الحديث ، كما أحبب الشعر وبعث على يد البارودى ومن تمذهب بهذه وضاف اليه .

ومما هو معلوم أن بعث القديم وحياءه هو الخطوة الأولى فى تطور النشر الفنى وتجديده ، بل انه يعد أحد وسائل التجديد واتقواها بالنسبة للفنون الأدبية كافة .

— ٣ —

والرسالة البكرية التى ذاعت وانتشرت بين الأدباء والكتاب آنذاك ، والتى قدما لها بهذه الدرامة الموجزة موضوعها — فى العتاب — .

ولقد كان هناك رباط وثيق بين كاتبها وبين من نسب له وهو السيد محمد توفيق البكرى نقيب الطرق الصوفية وصاحب المكانة المرموقة والأدب الرفيع .

وصدر هذه الرسالة الاخوانية يدلك على مدى الود الذى يكنه الكاتب للبكرى ، ويصور عاطفته المفعمة بحب الشيخ والولاء له ، كما يبين حرصه على زيارته وتنشوقه الى مجالسته والاستماع اليه ، حتى اذا وجد منه ازوارا وانصرافا عز عليه هذا السلوك الذى قابل الود بالنفور والغشوق بالانصراف ، فعنف ، فى العتاب بل بالغ فى هذا العنف كما صور قوله : « ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغاني والاذكار ، وشهود الأواني على هائدة الاقطار ، وبين من يزوره للسلام

وتأييد جامعة الاسلام « وفي هذه الفقرة يعرض الكاتب بما يدور في ساحة البكرى من أغان وحلقات أذكار ، وما كان يقام في بيته من موائد صفت أوانيتها وتنوعت ألوانها ، ويصفه بأنه لم يحسن التمييز بين من كان يزور البكرى استجابة لهذا الهدف وتلبية لهذا المطلب وحده ، وبين من كان يزوره حبا لله وتأيدا لجامعة الاسلام .

وهذه رسالة اخوانية جمع فيها حفى ناصف بين الدين والعنف،
— كما رأيت — .

وقد بنيت الرسالة على السجع الذى تفاوتت فقره بين الطول والقصر : وهو سجع غير متكلف ، وخفيف الوقع على الأذن ، وينهض أن يكون حجة بالغة يدلى بها أنصار السجع على علو منزلته بين أساليب الكلام (٣) .

ويرى العقاد أن — حفى ناصف — كان يتكلف فى نثره أكثر منه فى شعره ، وقد عقب على قطعة من نثر حفى ناصف بقوله : « ... وأن يكن فارق بين النظم والنثر فهو قلة المتكلف للتحسين والتميق فى نظمهم وكثرة المحسنات المتكلفة على جودة الصنعة فى نثره » (٢) .

والرسالة مليئة بضروب الخيال من تشبيه واستعارة — كما ترى — كقوله مشبها :

« ويعلم الله أن شوقى الى لقاءه كحرمى على بقاءه ، وكفى بنسوده كتسغفى بوجوده » .

وهذا تشبيه قريب المأثى فى تصويره سريع الادراك فى استنباطه والاحاطة به ، ولكنه يجسم العواطف على أى حال .

(٢) حفى ناصف ص ١٤٣ لمحمد غنيم .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٢٧

ومن الاستعارة في النص قوله :

« ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار » •

وقوله : « شدة الألفة تسقط الكلفة » وهي استعارات مألوفة قريبة واثرها ذي تشخيص المعنى بين •

وأسلوب الرسالة قوييم فصيح بعد عن الألفاظ المعجمية الموعلة في القعر ، حيث أتت عباراتها سهلة مع جزالتها وقوتها ، وأعل لموضوع الرسالة أثرا في صياغتها وصورها ، حيث أتت الرسالة معبرة عن روح العتاب الذي استهدف الود والذي يناسبه الأسلوب الرقيق (٤) •

٢ - « حرية الفكر » للعقاد

« مصر بلد المحافظة والتخليد ، نل ما فيها باق على وتيرته متصل بين ماضيه وحاضره ، وكأنما كانت آلهتها في رآك أهلها الأقدمين نأبى التجديد أو تعجز عنه فهي لهذا توصى القوم أن يحفظوا أجسادهم ألوف السنين لتعود إليها الحياة بعد حين بلا تجديد ولا تبديل !

فروح الحياة فيها لا تعرف الا جسدا واحدا تلبسه وتستبقيه الى يوم الرجعة اليه ولا يخطر للقوم أنها قادرة على انشاء جسد سواء وابتداع لباس غيره !

وهذا مثال المحافظة في تصور الحياة وتقيد القوة المنسئة في الوجود « بشكل » لا نتعداه ، وما الأنظام المخلدة ولا القبور المصونة ولا الوراثة المفروضة في العادات والأعمال والعبادات الا أمثلة أخرى لطبيعة المحافظة التي غبرت عليها بلاد النيل الذي يعود كما بدأ في

(٤) راجع : الأسلوب ص ١١٣ وما بعدها للأستاذ/ أحمد النسايب •

كل عام والرمال التي تحتفظ بكل وديعة تلقى اليها ، والسماة التي تحول
الأزمنة والفصول ، وهي على عهدا لا تتبدل ولا تحول •

بهذا الخلق في المصريين دامت المسيحية ودام الاسلام ، فلولا
صلابة في العقيدة وصبر على العذاب لعفى الرومان على المسيحية
في مصر ثم في البلدان كافة ، ولولا وقفة مصر في وجه الصليبيين
اذهب الاسلام أو لانزوى بأهله في ركن من الأركان الآسيوية التي
يجعلها العمران ، بل لولا مصر في القدم لما كانت الموسوية — ولا كانت
المسيحية والمحمدية بعد ذلك — ما هي اليوم وما شهدا عليه آباؤنا
الأولون • لمصر أثر خالد في كل دين خالد ، وحصة باقية في كل ما
تخيل الناس به معنى البقاء •

مصر الخلود هذه ما احوجها الى شيء من روح التجديد وما أفقرها
الى عقيدة الخلق والافتحام ، فان من الحسن المرعوب فيه أن يكون المرء
ذا عقيدة يسكن اليها ويغار عليها ، ولكن ليس من الحسن أن تكون
العقيدة غلامى عنق « القوة الخالقة » تصورنا لنا عاجزة عن انشاء
جسد جديد أو يعز عليها أن تتحول الحياة بغير هذا الجسد المحسوس !
ان أظهر مظاهر الخلق هو الانشاء والتجديد وليس هو المحافظة
والجمود ، وما الحياة نفسها الا ثورة على « المحافظة والجمود » ونصرة
للحرية على التقيد •

فليس أصلح للعقل المصرى في هذه اليقظة التي يتيقظها الآن من
الجرأة على التفكير الحر والقدره على انتزاع المنازع المستقلة في الراى
والاحساس ، وليس أحق بالترحيب من الكتب التي نفت العقول من
أسر قديم لافضل له غير القدم ، أو تخرج به عن سنن موروثة لاتحفظه
الا سهولة العادة وصعوبة الحرية والابتداع (٥) •

(٥) ساعات بين الكتب ص ٨٩ وما بعدها •

حول النص

الكاتب :

كاتب هذا النص هو الأديب الكبير عباس محمود العقاد — ١٨٨٩ —

١٩٦٤ •

ولد في أسوان لأسرة مصرية متوسطة ، وتعلم في الكذب ثم المدرسة الابتدائية التي تخرج فيها ١٩٠٣ ، ورحل عن بلده وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولم يكمل دراسته في المدارس والمعاهد الرسمية ، وأخذها أكملها معزدا على نفسه في تحصيل المعرفة والثقافة .

وقد جمع في ثقافته بين المعارف العربية والأجنبية ، ويعد صاحب مدرسة في الأدب والشعر والنقد والكتابة ، وعمل العقاد بالصحافة فكتب في كثير من الصحف والمجلات مقالاته في السياسة والاجتماع وفي النقد والأدب، وكان يكتب في جريدة البلاغ الوفدية، فنهض فيها بالمقالة السياسية مقتبسا كثيرا من آراء المفكرين والفلاسفة الغربيين وخاصة في مجال الحرية وحقوق الشعب السياسية ، وقد جمع كثيرا من مقالاته هذه وأمثالها في كتاب منها : « مطالعات في الكذب والحياة » و « مراجعات في الآداب والفنون » و « ساعات بين الكتب » و « النصوص » وهي تصور جهده المتقن المصنوع الذي اضطلع به في حياته الأدبية ، فقد نقل إلينا كثيرا من الأفكار الأوروبية التي لم نكن نعرفها ، وسأط عليها من شخصيته الأدبية ما طبعها بطابعه الخاص .

وقد خلف العقاد للمكتبة الأدبية ألوانا شتى من المؤلفات القيمة القيمة التي تعد ثروة ضخمة في الآثار العربية الحديثة ، والتي تدل

عابى نبوغ صاحبها وتفوقه فى ميدان الأدب وفنونه • ومن أهم آثاره :
١ — ديوان العقاد وهو مجموعة دواوينه الأربعة التى أصدرها
مفرقة ثم جمعت، وطبعت فى ديوان واحد سنة ١٩٢٨ •

٢ — الديوان وهو جزء من الكتاب النقدى الذى أصدره هو وصاحبه
المازنى ١٩٢١ ، وفيه نقد العقاد « شوقى » نقداً قاسياً •

٣ — شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى •

٤ — ابن الرومى حياته من شعره •

٥ — أبو نواس •

٦ — الفصول •

٧ — عقائد المفكرين فى القرن العشرين ••• الخ •

كما اتجه العقاد إلى كتابة التراجم والسير فكتب فى « محمد »
و « المسيح » عليهما السلام وفى أبى بكر الصديق وعمر وعلى •

ومن طريف كتبه « الله » ؛ كما كتب أيضاً عن « إبليس » •

وله قصة « سارة » • كما كتب مقالات مختلفة فى صحف عديدة
منها : البلاغ والقتطف والهلال وغيرها •

وبلغ ما كتبه نحو ستين مؤلفاً تمتاز كلها بحيوية التفكير وخصوبة
العقل (٦) •

(٦) راجع : الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١٣٨ د/شوقى

ضيف •

أفكار النص :

إذا أنعمنا النظر في هذا النص الذي بين أيدينا ، والذي كتبه العقاد تنويها بكتاب « حرية الفكر وإبطالها في التاريخ » الذي أصدرته مجلة الهلال للأديب سلامة موسى نرى أن هذا النص قد اشتمل على ثلاثة أفكار أساسية هي :

- ١ - مصر بلد المحافظة والتقليد .
- ٢ - أثر هذه المحافظة في الحفاظ على الموروث من عقائد وعادات وتقاليده .
- ٣ - حاجة مصر دائما إلى التجديد والتفكير الحر وانتزاع المنازع المستقلة في الرأي والاحساس .

وكذلك فكرة من هذه الأفكار مقرونة بالأدلة التي تبنت دحضها والبراهين التي تؤكد وجودها . ففي سبيل تأييد الفكرة الأولى اتخذ العقاد من فكرة الحفاظ على أجساد الموتى في قبورهم إلى أن تعود الحياة اليهم بعد حين وتلبس روح الحياة ذلك الجسد الذي فارقه عند موتها ، اتخذ من هذا دليلا على أن القوم لم يخطر ببالهم تجديد الجسد مرة ثانية ، أو ابتداء لباس غير الذي كفن فيه الميت مرة أخرى كذلك . كما ألح في التدليل على هذه الفكرة بما أتبع به هذا الكلام من قول : « وما الأحكام المخلدة ولا القبور المصونة . ولا الوراثة المفروضة في السمادات والأعمال والعبادات إلا أمثلة أخرى لطبيعة الممانعة التي عبرت عليها بلا داليل » الخ .

والفكرة الثانية متأخية تماما مع الفكرة الأولى فهي بمثابة التوضيح لها والتدليل على صحتها والتعميق لجزئياتها .

أما الفكرة الثالثة في النص فهي بمثابة النتيجة المستنبطة أو قل أنها بمثابة الأثر المترتب على الفكرتين السابقتين ، فالممانعة الدائمة

المتعصبه دليل على التخلف والجمود ، تخلف عن ركب الحضارة ومعاشية
التقدم ، وجمود عن الحركة حيث ، تحسن الحركة ،

ومن الوسائل المعينة على حرية الفكر وتجديده وبعث روح الحياة
فيه الكتب التي تفك العقول من أسر القديم والتقييد بقيوده وانربسها
في أغلاله ، ولذا يرحب بهذه الكتب ويدعو الى البحث ، ويحمد لكتابها
منزهم الجديد في دعوتهم الى حرية الفكر .

خصائص النص :

يتضح لنا من خلال هذا النص ما أمتاز به العقاد في كتاباته
وما لأسلوب هذه الكتابة من خصائص وسمات تميزه عن غيره من
أساليب الكتابة التي ظهرت في أدبنا الحديث .

ومن أبرز سماته الفنية في كتاباته :

١ - عمق المعنى الناجم عن عقله الخصب وثقافته العميقة التي
تعددت روافدها ما بين عربية وأجنبية ، وقد تمثل هذا العمق في
كل ما كتب العقاد في - السياسة والأدب والفلسفة والنقد والاجتماع
وتحليل الشخصيات وغيرها - فتراه يلج على الفكرة بتوليدها
واستنباطاته ، ويحتاج القارئ لها الى تمهل وروية حتى يتعمق المعنى
ويبتدى الى فهم الفكرة .

٢ - قوة اللفظ وجزالته ورصانة العبارة ودقتها ، اذ عرف
العقاد كيف يصوغ عباراته وكيف يلائم بينها ، وكيف يبعد بها عن
نبو الألفاظ وينأى بها عن الحشو الذي لا يقتضيه المعنى ولا يتطلبه
الغرض .

٣ - الاقتصاد في الزخرف والصنعة وغيرهما من وسائل التزيين
والتصور ، اذ عرف عنه أنه كان يعنى بالأفكار والمعاني ويحتشد لهما ،
ولم يحفل بالانشاء الذي يذهب بالفكرة أو يضعفها .

٤ — الاكثار من البراهين المنطقية التي تعزز فكرته وتعمقها ،
والملاءمة بين هذه البراهين والأدلة ملائمة دقيقة .

واقراً قواه مثلاً في هذا النص هذه الفقرة : « بهذا الخلق
في المصريين دامت المسيحية ودام الاسلام ، فلولا صلابة في العقيدة
وصبر على العذاب لعفى الرومان على المسيحية في مصر ثم في البلدان
كافة ، ولولا وقفة مصر في وجه الصليبيين لذهب الاسلام أو لانزوى
بأهله في ركن من الأركان الآسيوية التي يجهلها العمران » .

ثم أعد قراءتك مرة ثانية وثالثة فلن تجد لفظاً نابياً أو عبارة
محسوة ، أو جملة مقحمة ، أو احتشاد التصنع ، أو تصيداً للون بياني
أو بديعي لم يتطلبه المعنى ، ولكنك تجد قدرة فائقة على الصياغة ودقة
في استعمال الألفاظ واستخدام العبارات التي تفي بالمعنى وتعبّر عن
الفكرة وحدها .

٥ — ومن أهم ما يميز العقاد في كتاباته هو اعتزازه برأيه
وتمسكه به — لا عن تعصب ومراء — ولكن عن اقتناع ويقين يؤيدهما
ما يسوقه من براهين منطقية وأدلة دامغة . ويهتلك هذه الخاصة في
هذا النص مخالفته لصاحب الكتاب الذي أشاد به — كما أسلفنا —
في بعض آرائه بمثل قوله : « .. ولهذا يخالف المؤلف فيما كتب في
« شهوة التطور » اذ يقول : ... الخ .

وكقوله : « ثم نلاحظ عليه أنه يفرض أحياناً في مطالبته الحرية
بما لا طاقة لها به وذلك حيث يقول : « ثم أورد كلاماً لسلامة موسى
وعقب عليه بما يعبر عن مخالفته له فيه وتصحيحه له » .

٣ - الحاضنة : للدكتور / طه حسين

- ١ -

النص

« عطف الله على هذا اليتيم قلوبا ملئت حبا ، وقاضت حنانا ورحمة - تماما يظفر بمثلها المنعمون المترفون من أبناء الأغنياء ، وأسحاب اثرء الواسع والجاه العريض »

هذه الأمة الحبشية قد ورثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة أجمال أوراك وقطعة من الغم ، كانت حين أقبل اليتيم الى هذه الارض فتاة في ريعان الشباب ومبدأ الحياة ، لم تس وطنها القديم ولم تالف - وطنها الجديد ، ولم تسل عن حريتها ولم تنس الى رفقها ، نفسها معلقة بين لونين من ألوان الحياة ، كان أحدهما صفوا كله ، وهو لون الحياة العزيزة في بلد عزيز وبين أقوام أعزة كرام ، وكان الآخر يوسك أن يكون كدرا كله ، لا تتنظر الا رآته مظلما حالكا ، لا يبسم فيه أمل ولا ينبعث منه ضوء ، وهو لون الحياة انذلية في بلد نازح ، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تالفهم ، انما دفعتها اليهم خطوب الحياة دفعا ، وألقنتها اليهم صروف النوى القاء ، فهذا شبابها يذبل ، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق ، وهذه آمالها تبتتر بترا ، وقد كانت تريد أن تمتد وتنبسط . وهي ترى هذا كله خاشعة خاضعة ، مؤمنة مدعنة ، لم تختر منه شيئا ، ولا تستطيع أن تغير منه شيئا ، وهي قد وطنت نفسها أو وطنتها الأحداث على أن تكون أمة طيعة ، تخدم سادتها في نصيح أو في غش ، ولكنها تظهر لهم المطاعة والخضوع على كل حال ، وهي محزونة الذس كاسفة البال لا تبتمس الا بتكلفة ولا تضحك الا متصنعة ، ولا تطهش الى هؤلاء الذين من حولها ، ينظرون اليها نظرات

مهما يملؤها العطف ، والرفق فهي نظرات السادة الذين يملكون ويستعملون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون ، لهم أن يبيعوها وان لم نؤبر أن تباع ، ولهم أن يهبوها وان لم تحب أن توهب ، ولهم أن ينقلوها من يد الى يد ومن مكان الى مكان ، ولعلها أن تكون مؤثرة لهذه اليد التي بسطت عليها ، منكره لهذه اليد التي يراد أن تنقل اليها •

ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن تنفذ ما تريد ، وأي قيمة للارادة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن ينفذها ويجري أحكامها !

انما الارادة العاجزة أقبح صور الذل ، وأشنع ألوان الرق وأبغض ما يلقى الانسان في الحياة •

- ٢ -

كاتبه :

كاتب هذا النص هو واحد من رواد النهضة الأدبية المعاصرة ، وأبرز المجددين في ميادين : الفكر والثقافة والأدب والنقد والتربية والاجتماع ، وهو الدكتور / طه حسين - ١٨٨٩ - ١٩٧٣ - ولد في قرية من صعيد مصر على مقربة من مدينة مغامة - باقليم المنيا - وقد ألحقه والده بكتاب القرية فحفظ القرآن الكريم في وقت مبكر من حياته ، ثم التحق بالأزهر الشريف ونهل من علومه الدينية واللامعية والأدبية - بنهم - ولكنه تمرد على طريقة التعليم فيه ، وأخذ يختلف الى الجامعة الأهلية التي فتحت أبوابها للطلاب سنة ١٩٠٨ فانتظم فيها • وتلقى على كبار الأساتذة والعلماء من المصريين والمستشرقين • وتأثر بكثير منهم ، وقد كان أول طالب مصري يظفر بدرجة الدكتوراه في الآداب من هذه الجامعة عن رسالة « ذكرى أبي العلاء » ، ولقد أوفدته الجامعة في بعثة علمية الى فرنسا ليدرس في جامعاتها ، وهناك

درس المعاوهم التاريخية والفلسفة وعلم النفس الى جانب دراسة الآداب اليونانية واللاتينية القديمة والآداب الفرنسية الحديث ، وكان أهم ما شغف به من دراسات في السوربون المتبادل الفلسفية والاجتماعية ، وقد جعل رسالته للدكتوراه عن « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » .

ولما عاد الى مصر عمل استاذاً في جامعة الاسكندرية ثم عميداً لكلية الآداب . ثم مديراً لجامعة الاسكندرية . وظل يرقى في سلك الوظيفة حتى عين وزيراً للمعارف ورئيساً لمجمع اللغة العربية .

وحياة طه حسين ماثلة بالدفاع ، فاقد شهر قلده يناضل المحافظين في الدين والآداب والسياسة ، كما نافضل في سبيل تغذية أمة بالمثل الأدبية عند اليونان والعربيين ، ذاك سلك منهجا جديدا في بحوثه ودراساته الأدبية واخذ طرقتا جديدة في عالم القصة يعينه في ذلك ملكة أدبية فذة واستعداد أدبي .

ومن أهم آثاره :

- ١ - في الآداب ونفذه : في الآداب الجاهلي ، حديث الأربعة (٣ أجزاء) ، تجديد ذكرى أبي العلاء مع المتنبي ، الخ .
- ٢ - في القصة والرواية : الحب الضائع ، المعذبون في الأرض ، شجرة البؤس ، دعاء الكروان .
- ٣ - في السير والتراجم : الأيام (في ثلاثة أجزاء) ، على هامس السيرة (٣ أجزاء) ، الشيخان ، عثمان ، علي وبنوه .

- ٣ -

أفكار النص : في هذا النص صور الكاتب بخياله المذهب العميق وبيانه الرائع المؤثر ، تلك الأمة الحبشية - أم أيمن حاضنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي آلت اليه عن طريق الارث ضمن

ما آل اليه من متاع قليل خلفه والده بعد وفاته ، ولقد آثرها الله بحضانة الرسول الكريم في طفولته بعد أن ماتت أمه ، وقد رعته طفلاً وحسباً وساباً ، حتى إذا بنى بالسيدة خديجة — رضى الله عنها — نظر صلوات الله وسلامه عليه إلى هذه الأمة التي نعم بحبها وحنانها وحسن رعايتها فأعنفها ومنحها حقها كاملاً في الحياة الحرة الكريمة ، وقد تزوجت من رجل من أهل يثرب كان يقيم نى محة ، وأنجبت منه ابنها — أيمن بن عبيد — الذى بنيت به ، وقد استشهد فى غزوه حنين •

وخان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يؤثرها بعطفه وبره ، وكان يتحدث عنها قائلاً لأصحابه : « انها بقية أهل بيتى » ، ولما مات زوجها — عبيد — قال فيها — صلى الله عليه وسلم — : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن » ، وفى هذا ما يدل على مكانتها لدى الاسلام ومنزاتها عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد أدرك زيد بن حارثة هذه المنزلة الرفيعة لأم أيمن ، فأسرع واتخذها له زوجة فولدت له — أسامة بن زيد — قائد جيش الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذى جهزه لتأديب المارقين ومহারبة المرتدين ، وقد شهدت أم أيمن خلافة أبى بكر وعمر وماتت فى خلافة عثمان •

ولقد برع الكاتب فى تصوير مناهد هذه الأمة ووصف الجو النفسى الذى كان يحيط بها تصويراً فنياً دقيقاً ، يدل على قدرة الكاتب على تمثيل أهواء النفس ونوازعها وما طبعت عليه من تعشق الحرية والتفكر لحياة الرق وما يتبعها من عبودية واذلال ، وقد أسعفه خياله الرحب وحسه العميق فى أن يتخيل ما كان يعتلج فى أعماق الأمة من صراع نفسى مرير ، وما يحتاج فيها من شعور بالأسى والكآبة ، فهى موزعة المشاعر بين وطنها القديم ووطنها الجديد ، الذى هم تألف فيه المقام • وهى تواقفة الى حياة الحرية التى سلبت منها اثر سيورتها الى حياة الرقيق ، وهى لم تانس الى حياة الرق وما يتبعها

من ذا، وهوان - ومع ذلك فهي ليست متمردة على حياتها الجديدة ،
لأنها تعيش عزيز : كريمة في بلد عزيز وبين قوم كرام ، ولكنها ليست
مبتهجة بهذه الحياة لشعورها بأنها تقيم في بلد بعيد وبين قوم غرباء
لا تعرفهم ولا تألفهم .

وهي شقية بخطب الزمان الذي أوقعها في قدر مؤلم تمت في
عندها وانهدت قواها ، وبرغم هذه الأحاسيس المتباينة المتساقطة
في نفس الأمة ، فلقد وطنت نفسها على خدمة سادتها مطيعة مخصصة ،
ذليلة خاضعة : لأنها سلبت أعز شيء في الحياة ، وهو الحرية والارادة .

ولقد بلغ الكاتب مبلغا عظيما في التعبير عن مشاعر الرقيق
وتصوير أنفسهم وما تنطوي عليه من هموم وأحزان وآلام ، حيث
افتقدوا الحرية وحرّموا الارادة ، وفي هذا ما يدل على أن الكاتب
كان ينكر بشدة استعباد الانسان لأخيه الانسان ، ذلك السلوك المشين
الذي كان متفشيا في المجتمع الجاهلي - حتى جاء الاسلام فحرّمه
وحارب به بكل سلاح - ومن أسف فان كثيرا من الأمم التي تزعم لنفسها
الرقى والتحضّر لم تزل تبجح لنفسها بانتهاك حقوق الانسان ساكة طريق
التمييز العنصري البغيض والغزو العسكري الفاتك .

- ٤ -

المقيم الفنية للنص : الدكتور طه حسين صاحب مدرسة أدبية
مميزة بين مدارس النثر الفني المعاصر - وله أسلوبه الأدبي الخاص ،
وهو الأسلوب الجمالي والتصويري الذي يقوم على انتخاب الألفاظ
الرشيقة العذبة والصور البيانية الفائقة والموسيقى الحلوة العذبة ،
والخيال الرائع الخصب ، الذي مكّنه من تمثيل المواقف وتشخيصها
وبعث الحيوية فيها ، وأظهر ما يكون ذلك - في قصصه ورواياته - .
وفي هذا النص كثير من خصائص أسلوبه ، ويمكن أن نستنبط
منه ما يأتي من قيم جمالية وتعبيرية .

١ - روعة التصوير والتفنن فيه :

وسبيله في ذلك تجسيم المعنى وتنشيطه عن طريق المجازات والاستعارات التي ألف منها صورته الفنية الجميلة كقوله : مصورا حياه الأمة ولون تلك الحياه الذايلة : « ... وكان الآخر يوشك أن يكون كدرا كله ، لا تسلر الا رأته مظلما حالكا ، لا يبتسم فيه أمل ، ولا ينبعث فيه ضوء » .

وقوله : « فهذا نسابها يذبل ، وقد كان يريد أن يزهر ويتألق » . رأيته الى هذا - الأمل الذي يبسم - والضوء الذي ينبعث ، والنسب الذي يذبل ، والذي يريد أن يزهر ويتألق ، وكلها صور جميلة معبرة عن المعنى وهذه الاحساس الداخلي للأمة . وقد امتثل النص بمثل هذه الصور البيانية الأخاذة .

٢ - الالحاح على تعميق المعنى وتوكيده والاستقصاء فيه :

وسبيله في ذلك استخدام الوسائل المختلفة للتوكيد . مثل : انما في قوله : « انما دفعتها اليهم خطوب الحياة » ، « انما الارادة العاجز : اقبح صور الذل » والمفعول المطلق في قوله : « وهذه آمالها تبتسر بنرا » ، « انما دفعتها اليهم خطوب الحياة دفعا ، وألقته اليهم حروف النوى القاء » وهي مؤكدة لعاملها ، والتعبير عن المعنى الواحد بصورتين مختلفتين قصدا الى توكيده وتعميقه في نفس سامعة وقارئه ، كقوله : « وقد كانت تريد أن تمتد وتنسط » ، و « لم تسلم عن حريتها ولم تأس الى رقها » وقوله : « وهي محزونة النفس كاسفة البان » .

وهذا من أسلوب الكاتب المميز الذي يمكنك أن تستغنى عن بعض عباراته دون أن يخل ذلك بالمعنى ، كقوله : « وهي قد وطنت ، نفسها أو وطنتها الأحداث على أن تكون أمة طيبة » .

وكقوله : « ولكنها لا تستطيع أن تريد أو لا تستطيع أن نفذ ما تريد » ، ولعل الذى أغراه بهذا الأسلوب هو : تمكنه من زمام القول وناصية اللغة التى كانت تنسال عليه ألفاظها طليعة ، وتتدفق منه فى غزارة — كما ترى — •

٣ — عنايته بعنصر الموسيقى فى النص الذى يتأتى من انتقاء الألفاظ العذبة ، نوات الايقاع الموسيقى الجميل ، والصنعة غير المتكلفة التى تحاى بها النص — كالجناس — فى قوله : « وهى ترى هذا كله خائفة خائفة ، مؤمنة مذعنة » ودقة الفواصل وروعة السجع فى قوله : « فهى نظرات السادة الذين يملكون ويعتزلون ويستطيعون أن يتصرفوا فيها كما يحبون » ، وجمال التقسيم فى قوله : « لهم أن يبيعوها وان لم تؤثر أن تباع ، ولهم أن يهبوها وان لم تحت أن توهب » • ومن أخص خصائص أسلوب طه حسين فى كتاباته — أسلوبه المتموج الزاخر بالانغم ، فلا تستمع الى كلام له حتى تعرفه بطوابعه المعينة فى عباراته المألوفة التى يأخذ بعضها برقاب بعض فى جرس موسيقى بديع » •

٤ — ومن خصائص النص براعة الكاتب فى التعبير عن الجو النفسى المحيط بالأمة ، وقدرته على استحضار المواقف وتمثيل المشاهد وتخيل المناسبات المتباينة التى ألت بالحاضنة على النحو الذى رأيت •

٥ — القيمة الأدبية للنص :

لقد استمد الكاتب أحداث هذا النص من التاريخ الإسلامى مستلهما روح التراث فيه ، وتمكن من توظيف التاريخ فى خدمة الفن ، لأنه لم يحك، الأحداث ، حكاية جافة مجردة تعتمد على السرد وتبعد عن التحليل ، ولكنه مزج التاريخ بالفن الأدبى ، وصاغ الأحداث التاريخية فى قالب قصصى مشوق يقوم على التصوير والتحليل ،

وأضفى على الحقائق التاريخية من شخصيته وفنه ما جعلها عملا أدبيا
رائعا ، يندرج تحت فن – التراجم والسير – وهى من الأعمال الأدبية
الجديدة التى قدمها طه حسين لفنون الأدب المعاصر وبرز فيها تميزا
كان موضع إشادة من انتقاد العرب والأوربيين • حيث ترجمت بعض
أعماله فى هذا الباب الى عدد من اللغات الأوربية •

٤ - « قرآن الفجر » الزيارات

- ١ -

- النص -

يقول الزيات :

« سهرت بجانب المذيع ليلة أستمع الى أم كلثوم فى حفلتها
الاذاعية الشهيرة ، وكان صوتها ينبعث من الجهاز رخيما عذبا ،
فيملأ جوانب نفسى وحسى ، كأنما كنت أسمعه بجسمى كله ، فاذا
انقضت (الوصلة) اخذ المذيع يثرثر بالفسارغ وبعض المالكين
فيقلبنى من نشوة النغم المرفقة الى صحوة السأم الممض . الى ان
أقبلت هوادى الليل واستأنفت المطربة العظيمة الغناء فى وصلتها
الأخيرة . وكان الشارع قد سكن والبيت قد نام والمذيع قد فتر . »

فأحسست أن الصوت الساحر ينسكب فى مسمعى ، نقيا كرنين
الفضة ، ناديا كرجيع البلبل ، تقيا كتسبيح الملائكة ، فاعترتنى حال
من الصوفية الشاعرة ، نيهما الحب والشوق ، وفيهما الغناء والعبادة ،
حتى اذا انتهى الغناء الأمر وانخفض السامر الشوان ، أويت الى
مضجى ألتمس النوم فامتنع على ، ووجدت بى نزوعا الى اجتلاء
الطبيعة فى مجتلاها الرحب .

فصعدت الى سطح البيت المنزل ، وأرسلت عيني نجولان
حول البيوت المظلمة النائمة ، ومن ورائهما خيال ينفذ من وراء
الجدر والستور ، الى أنماط شتى من الناس تفاوتوا فى الحظوظ
وتباينوا فى الأحوال ، فمن خلى ينام ملء جفنيه نوم الطفل لا يعود
لطيف ولا يزعجه حلم ، ومن شجى يسامرهم الهم ويساوره القلق فلم
يتحل عيناه بنمىش ، ومن مريض يتململ على فراشه النابى فلا يبتلى

الا ليتقلب ، ولا يمسكت الا ايئن ، ومن حبيب يخلو الى حبيبه ضاوة
النوال بعد الرعدة او الودحال بعد القليعة ، ونالتهما شيطان
يجرس او دانت يجرس ، ومن زوج يسدن الى زوجه سيكون المود
والرحمة ، وتحت جناحيهما غراخهما الزغب ينعمون بالنوم السعيد
في العش الهادي ، الدافئ ، ومن مجرم يطلو احناء صدره على
السوء ، فهو يبيت بليل ما سيقتره غدا من العدوان والاثم ، ولا يجد
من ضميره الغافى حسابا على ما انتترف بالامس من المذكر والتبعي ،
ومن مؤمن قضى موهنا من اليل ينتهد بالسلامة ، ويتعبد بالذكر ، ثم
عفا قليلا ايتهيه عليه نسيم السحر ودعاء المؤذن الى بيت الله القريب .

دل هؤلاء ، ذمتهم هذه البيوت المتجاورة التغايرد كما تضم
المسائر نوازح القلوب ونوازي الانس فلا يعلمها الا الله ، الذي
لا يعزب عن علمه منقال دره في الارض ولا في السماء ، ثم نطرت
نذرة في النجوم وهي تسبح في املاذها بين متالق وخاب ودان وقاص
وحساد ومنحدر ، فتواردت على حاطري مختلف الآراء التي استنفرت
في اذهان الناس عنها في القديم والحديث .

كنت مشغولا بفكري وخيالي في الخونين الأدنى والأعلى حين
وقع في مسمعى تسبيح المؤذن على منارة (قايتهاي) . فعدت من
التفكير في الماذوت الى التفكير في المالك ، وانتقلت من التوجه الى
الخالق الى التوجه الى الخالق ، وانبعث أنثذ من جانب "بيت
المسالحق صوت خاسع ، يقرأ سورة الاسراء بتجويد بين وترقيل
حسن ، وكان الناري المتهدد قد بلغ في قراءته قول الله تعالى :
« اقم الصلاة لادلوك الشمس الى عسق المايل وقرءان الفجر ان قرءان
المجر ذان مبهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك
ربك مقاما محمودا » .

فأصغيت بسمعى وقلبي الى كلمات الله وهي تصعد اليه من
فم هذا الرجل في جارة السحر وخواوة المكان ، وقد سجا الليل

ورق الظلام وعمق النور واختلط سنا « الزهرة » بتباشير الفجر
فابيض الأفق المشرقى ابيضاض اللؤلؤ ، وتجاوب أذان المؤذن وترتيل
المرتل تجاوب الوحي والدعوة فذكرت بالقرآن الله الذى أوحى وبالأذان
الرسول الذى بلغ •

وامتد الصوتان فى نفسى صوت ايمانى القوى بالموحى والمبلغ
ففنى وجودى المادى فى وجودى الروحى ، فلم أعد أشعر
بالفاك ولا بالازمن ولا بالعالم ، وانمحي من مسمعى ما كان يشغلها من
الأصداء الملاحية لسدو أم كاثوم ولحن السنباطى ونظم رامى ، وبقيت
فارغين خالصين لسبحان السحر وقرآن الفجر يتقبلانها بقوة ولذة
واستيعاب شيسريان فى كيانى ووجدانى مسرى البرد فى السقم أو الروح
فى البدن أو الايمان فى القلب ، لا لحسن الصوت ولا لجمال الايقاع ،
ولكن لشعور سماوى لا تدركه حاسة ولا تصفه لغة ولا يعرفه الا من وقف
هذه الوقفة مستحضرا فى ذهنه جلال الله مستشعرا فى نفسه جمال
الطبيعة •

انا لنسمع القرآن والأذان فى كل يوم وفى كل صلاة ، ولكننا
حين نسمعها لا نجد فى انفسنا تلك الجلوة التى تنشأ عن الصفاء •
ولا ذلك الاستشراق الذى يصل ما بينها وبين السماء ، ذلك لأن مشاعرنا
تكون فى النهار مشغولة بضجة العمل وزحمة العيش فلا تخلص لجواحي
الروح فى المعالم الآخر •

أما الاستماع اليهما وقد هب المتقون من اغفاءة الفجر اللذيذة
حين لا يكون المرء الا روحا تمصى وفكرا يجول وخيالا يحلق ونفسا تتصلى ،
فتلك هى ساعة التجلبى ، ساعة يندمج فيها الشاهد فى المشهود وينفعل
العابد بالمعبود ، ويشعر ابن آدم القليل الضئيل المرتفق على سور
المسطح ، أنه شعاعة من نور الله اذا انقطعت عن مدده خمدت ، وهباءة
فى فضاء الكون اذا أفلتت من جذبه فقدت • • • » •

- ٢ -

صاحب الزين : صاحب هذا الفن الأدبي الرفيع هو
الأديب الكبير والكاتب الأشهر ، أحمد حسن الزيات — رائد مدرسة
أدبية فن النثر الفني المحاصر ، لها طابع مميز ومذاق أسلوبى خاص ،
تربى على أصولها ويهل من معينها عديد من الأدباء والكتاب العرب ،
الذين ما شروها ونسبوا على نهجها السريد حتى ما بعد منتصف هذا
القرن .

ولد الزيات فى مدينة المنصورة عام ١٨٨٥ م . ومدينة المنصورة
مدينة السحر والفن والجمال تربي فيها وأغرم بمناظرها الطبيعية
الفاتنة عدد من شعراء هذا العصر وأدبائه ، وقد انشق الزيات
بالأزهر الشريف بعد أن ارتحل الى مدينة القاهرة وفيه تلقى علوم
الدين واللغة والأدب ، وظهر نبوغه الأدبى منذ وقت مبكر من حياته
فمضى يدبج — بريشته الصناع وبيانه العذب — مقاله تلو المقالة
ينسجها دعوته الى التحرر من قيود الماضى البغيض ، ويدعو فيها
الى كل جديد مفيد دون أن ينسلخ عن تراث العربى العريق ومجده
الاسلامى الخالد .

وقد أسهم الزيات فى تحرير كثير من الصحف والمجلات الأدبية
الكبرى ، فكتب فى الجريدة النبى ذان يسدرها أحمد لطفى السيد ،
وفى مجلة — مصر الفتاد — الى ذان ينسر ذياها بحوثا أدبية قيمة
مع زميله طه حسين . كما دان يكتب فى مجلة — السياسة الاسبوعية —
وفى غيرها .

وفى عام ١٩٣٢ ، أصدر الزيات مجلته الأدبية الثقافية القيمة —
الرسالة — التى تعد مدرسة أدبية كبرى ذات أثر عظيم فى نمو الحياة
الفكرية واثراء الحياة الأدبية والثقافية فى الشرق العربى كله ، وقد
فتتح بها نواهد جديدة أطل منها الأدباء على روائع الأدب العربى

والعربي ، كما كانت مصدرا قويا من مصادر اليقظة الوطنية والوعي القومي والدعوة الي تحرير الأوطان من كافة ألوان الاحتلال .

— وقد ظل الزيات يغذى هذه المجلة بمقالاته المتعددة في شتى ألوان الفكر والفن والأدب ، وهذه المقالات كلها جمعت في مجادات ضخمة عنوانها « وحي الرسالة » .

وقد شارك الزيات بأعماله الأدبية الغديدة في تجديد شتباب أدبنا العربي الحديث ، حتى عد بحق واحدا من رواد التجديد في نهضتنا الأدبية المعاصرة ، ومن أبرز أعماله الأدبية :

١ — تاريخ الأدب العربي ، وهو كتاب أرخ فيه للأدب العربي من عصر الجاهلية الى العصر الحاضر في نحو من خمسمائة صفحة ، في ايجاز واع وعرض دقيق مختصر .

٢ — دفاع عن البلاغة — وهو كتاب جم النفع عظيم الفائدة متوسط الحجم — عرض فيه لقضية البلاغة العربية ودافع عنها أبلى دفاع ، وفيه كثير من الفصول الرائعة المبتكرة .

٣ — في أصول الأدب — وهو كتاب في الأدب والنقد يتميز بالدقة والتحليل والعمق .

٤ — ترجمة قصة « رفائيل » وهي إحدى روائع القصص العالمي الواقعي للشاعر الفرنسي « لامارتين » ، وترجمة قصة « هاوست » للأديب الألماني الكبير « جوته » .

— ٣ —

تحليل النص :

هذا النص الأدبي الراقى من : — أدب المقال — الذي يعد من الفنون الأدبية الجديدة التي تبوأَت مكانتها في أدبنا الحديث ، والتي يعزى اليها تحليل آدابنا العربية الحديثة من قيود الزخرف الغظى واغلال الصنعة المتكلفة من بديع وغيره ، حيث كان الأدباء يحتشدون لها ويعدون المهارة فيها دليلا على التفوق والنبوغ في الأدب .

— وفن المقال — ، ما عرفته آدابنا الحديثة — يعد وليد عصر النهضة الأدبية التي تآثر فيها أدباؤنا بالاتجاهات السائدة في الآداب الأوروبية ، أثر إطلاعهم عايتها في لغتها ، أو بعد ترجمتها إلى اللسان العربي ، وإن ذهب بعض مؤرخي الآداب إلى أن هذا الفن الأدبي قد عرفته آدابنا القديمة في كتابات الجاحظ وابن المقفع وابن زهير الأندلسي وأمثالهم من كتاب الرسائل .

ولقد تنوعت فنون المقال في آدابنا الحديث ، لتنوع الموضوعات التي يعالجها كل مقال على حدة — فظهر المقال الوطني ، والمقال السياسي والمقال الاجتماعي ، والمقال الأدبي ، والمقال الإنساني أو الوجداني . . . الخ .

— والمقال بناء فني دقيق ، يلتزم به كاتبه ، بحيث تتدون أجزاؤه من مقدمة وموضوع وخاتمة — وعندئذ يصبح الأسلوب هو .

١ — المضمون ٢ — الأسلوب ٣ — التقديم والبناء .
— والمقال الذي عالجه الزيات هنا من قبيل — المقال الإنشائي الوجداني — وقد دسور فيه إندفاعه إزاء مشهد ما هذه وحاطرة المت بدنية وقد نغز ديبها هذا الحس وغاصت فيها مشاعر الكاتب ، همت تأملاته في دماء روحى وسبح روحى .

— ومضمون المقال مضمون تأملى حيث تبرزت مشاعر الكاتب بين التفكير في المادوت والتفكير في الماك ، وانتقل به فخره من التوجه إلى المخلوق إلى التوجه إلى الخالق ، وذلك في ليل سادس ساج هزه فيه سددو غناء رفيع ، انبعث من صوت عذب رحيم ، في سكون الليل وهدايته . وسكوت السجود بعد ساعته ، وقد حفا دهن الكاتب و . . . ببح به خياله يتأمل متناقضات الدون السانن الخاضع من حوله في اعتبار المعتبر وتأمل المتذكر ، وبعد أن حان في جر من تدميره وسبح في فضاء المعظمة والديرة ، نسده كلام الله الذي انبعث من باب حاء ، شامع يرتل أبهى آيات العلامة التي نأخذ بدجاء المقام ونجذبها إليها في فضاء واشراق ، كما أسره أذان المؤذن وجمال نذيرته وهو ينادى في

الملاذ من حوله ، أن هبوا الى توحيد المولى عز وجل الذى نطق بوحدهانيته
ودعنا الى عبادته وحده ، فانتقل بالكاتب حسه الى صفاء روحى وانسراح
مستوفى وشعور سماوى لا تدركه حاسة ولا تصفه لغة ولا يعرفه الا من
وانفق وقفته ، مستحضرا في ذهنه جلال الله ، مستشعرا في نفسه
جمال الطبيعة .

- ٤ -

البناء الغنى للمقال :

اقد بنى الكاتب مقاله الذى بين أيدينا بناء فنيا دقيقا مراعي
الأصول الفنية التى نوهنا بها آنفا ، اذ تكون مقاله من عناصر ثلاثة هي :
١ - المضمون : وهو عبارة عن الفكرة الأساسية التى احتشد
الكاتب لمعالجتها ، والتى ألمعت اليها سابقا ، وقد مهد لها بمقدمة تودى
اليها ونهى الدنس لاستيعابها والوقوف عليها ، ثم تناول هذه الفكرة
بالعرض والتصوير الملائم لحجم المقال . ثم انتهى منها الى خاتمه
تضم شتات الذكرة ، وتلخص النتيجة التى استهدفها الكاتب من مقاله .

٢ - الأسلوب : وهو الطريقة التى عالج بها الكاتب مقاله ،
والوسيلة الفنية التى عبر بها على فكرة هذا المقال وترجم بها عن
معانيه ، وهى وسيلة بيانية جمالية ، حيث تقنن الكاتب فيها ، وأجاد
تصوير فكرته من خلالها ، مستخدما الطاقة التعبيرية والصوتية للكلمة
بما لها من دلالة وإيحاء واتساع فنى دقيق ، وبما لها كذلك من جرس
ورنين موسيقى عذب ، وهذه الخصائص التعبيرية والفنية للغة يمكنك
الوقوف عليها فى كل ألفاظ النص حيث انتقى الكاتب ألفاظه انتقاء
وانتخبها بذوق الاديب ووجدان الكاتب وبراعة الانتخب المدقق .

— كما اعتمد الكاتب فى نقل فكرته للقارئ على كثير من الصور
البيانية الجميلة فى مجازاته اللطيفة وتشبيهاته الرائعة واستعاراته
البارعة التى تتمثل فى قوله :

« .. سجا الليل ، ورق الظلام ، وعمق النور ، واختلط سنا
« الزهرة » بتباشير الفجر فابيض الأفق الشرقى ابيضاض اللؤلؤ »
وقوله : « فلم تكتحل عيناه بغمض » وأبعاد الصورة واضحة فيما
تمثلنا به هنا .

وفى الفص ضروب من الصنعة اللطيفة ، التى تجمل الأساوب
وتضفى عليه موسيقى عذبة ، تدركها فى قوله : « .. ومن شجى
يسامره الهم ويساوره القلق » .

وقوله : « .. ملا يسكن الا ليقطب ، ولا يسكت الا لينن » .
وقوله : « وهى تصعد اليه من فم هذا الرجل ، فى جلوة السحر
وخلوة المكان » .

حيث جانس جانسا ناقصا بين كل من : « يسامر ويساور »
و « يسكن ويسكت » ، و « جلوة وخلوة » .

٣ - التصميم : وهو يعنى تصور الكاتب لموضوعه وبناءه بناء
فنيا دقيقا ، بحيث يكون المقال متماسك الأجزاء ، مترابط الأفكار ،
منسجم العناصر ، وتكون نهايته ملائمة لموضوعه ، وموضوعه موافق
لمقدمته ، وأفكاره موزعة توزيعا منطقيا منسجما .

— ٥ —

القيم الفنية فى النص :

- اتسم هذا النص الأدبى بالسلمات والقيم الفنية الآتية .
- سمو المصمون ورفعته .
- البراعة فى انتقاء ألفاظه والدقة فى استخدامها .
- جمال النعم وروعة الايقاع ولطف الموسيقى .
- روعة الأسلوب وتأثيره وفاعليته .

- هندسة العبارة ورشاققتها والدقة في انتخابها •
- دقة التصميم الفني وبراعة البناء الأدبي •
- المسحة الصوفية المبرقة التي تجلت في ثنايا النص •
- الدوق الفني الرفيع الذي يتملى الجمال ، ويتذوق روعة العجم ، ويتحسس خبايا النفس •
- المهارة في انتقاء اللفظة ذات الجرس المعبر والموسيقى العذبة والايفاع الصوتي الجميل •
- التألق في تأليف العبارات وتكوين الجمل والربط بينها •
- الفنان في تأليف الصور الفنية الدالة ، والبراعة في استخدام الاسنعة اللفظية غير المتكلفة •

وهذه السمات الفنية الرفيعة التي استبطنها من خلال هذا النص تبين في جلاء المذهب الأدبي للزيات الذي عنى بالقيم الجمالية في أدبه عناية فائقة ، وقد تأثره في هذا المذهب عديد من أدباء العربية في هذا العصر ، ويكفى أن ندلل على هذا بأن مجلته الدادة « مجلة الرسالة » قد تربي عليها وتخرج فيها جيل من أدباء هذا العصر وكتابه ممن نهضوا بأدبنا المعاصر نهضة واسعة — كما سبق أن ذكرنا — •



« الوطن العربى » لجبران

مات أهلى ..

١. « النص » (١)

قال جبران :

« مات أهلى وأنا فى قيد الحياه ، اندبهم فى وحدتى وانفرادى ..
مات أحبابى . وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم .. مات
أهلى وأحبابى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ، وأنا هاهنا
أعيش منأما كنت عاتتسا عندما ذانوا جالسين على منكبى الحياه وهضبات
بلادى مغمورة بنور الشمس ..

لو دنت جائعا بين أهلى الجائعين ، مضطهدا بين قومى المضطهدين
أكانت الأيام أخف وطأة على صدرى ، والليل أثقل سوادا أمام عيني ،
لان من يتشارك أهله بالأسى والتسده يتسر بتلك التعزية العالوية التى
يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه ، لأنه يموت بريئا مع الأبرياء ..
وانسى لست مع قومى المضطهدين الجائعين السائرين فى موكب
الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا هنا أعيش وراء البحر دى ظل
الطمأنينة وخمول السلامة ..

أنا هنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ، ولا أستطيع أن أفتخر بشئ
حتى ولا بدموعى ..

لو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى ، لكان الطفل
الجائع يلتقطنى ويزيل بحباتى يد الموت عن نفسه ..
لو كنت قمره يانعة فى بساتين بلادى لكانت المرأة الجائعة
تتناوانى وتتقضى ..

(١) كتاب العواصف لجبران ..

لو كنت طائرا في فضاء بلادى لكان الرجل الجائع يحطادنى
 ويزيل بجسدى ظلا، القبر عن جسده *
 ولكن واجر قلباه ! لست بسنبلة من القمح فى سهول سوريا
 ولا بثمره يانعة فى أودية لبنان ، وهذه نكبتى الصامته التى تجعلنى
 حقيرا أمام نفسى وأشباح الليل *
 — لو ثار قومى على حكامهم الطغاة ، وماتوا جميعا متمردين ،
 لقلت : ان الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظل الاستسلام،
 ومن يعتنق الأبدية والسيوف فى يده كان خالدا بخلود الحق *
 ولو اشتركت أمتى بحرب الأمم ، وانقرضت عن بكرة أبيها فى
 ساحة القتال * لقلت : هى العاصفة الهوجاء ، تصهر بعزمها الأغصان
 الخضراء واليابسة معا ، والموت تحت أغصان العواصف أشرف منه بين
 ذراعى الشيدوخة *
 ولو زلزلت الأرض زلزالها ، وقلبت ظهر بلادى صدرا ، وعمر
 النراب أهلى واحبائى اقلت : هى النواميس الخفية تتحرك بمنسيئة
 قوة فوق قوى البشر ، فمن الجهالة أن نحاول ادراك أسرارها وخفاياها *
 ولكن ام يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا ززع
 الزلازل بلادهم فانقرضوا مستسلمين * مات أهلى على الصليب *
 ماتوا وأكفهم مددودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم محدقة بسواد
 الفضاء * ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم *
 مانوا لأن النعبان الجهنمى قد اتهم كل ما فى حقولهم من الواسى،
 وما فى أهرائهم من الأقوات *

صاحب النص :

— ١ —

ولد جبران خليل فى ديسمبر ١٨٨٣ فى مدينة « بىرى »
 بلبنان ، وتعلم فى مدرسة الحكمة ببيروت ، ثم رحل الى باريس ومنها
 الى مدينة بوسطن بأمريكا ، فأقام فيها يشتغل بالكتابة والتصوير ،

ثم عاد سنة ١٩٠٨ الى باريس ليتم دراسته فى التصوير فى معهد الفنون الجميلة ، وفى باريس ذتن بشعر الشاعر الانجليزى «وليام بليك» ، وصار جبران شاعرا يلتقى فيه الفن الجميل والشعر ، الشعر المتحرر من قيود الوزن والثقافية فى كثير من الاحايين .

وفى عام ١٩٢٠ أسس جبران وعبد المسيح حداد واخوانهما « الرابطة القلمية » فى نيويورك ، وصار جبران رئيسا لها وبعد كفاح طويل مات جبران فى ابريل ١٩٣١ فى نيويورك ، ونقل جثمانه الى لبنان فدفن فى بلدته « بشرى » وترك وراءه ذكرا مدويا وشهرة ذائعة ، وتلامذة معجبين متأثرين بأدبه ودعوته التحررية فى الشعر والفن والأدب جميعا .

- ٢ -

وقد خلف جبران مجموعة من المؤلفات التى ذاعت شهرتها وترجمت الى ست وخمسين لغة منها : « النبى » و « المجنون » و « رمل وزبد » والأمواج والموادف ، والأرواح المتمردة ، والبدائع ، وحديقة النبى وعرائس المروج ، ودمعة وابتنسامة والأجنحة المتكسرة ، وبعض هذه المؤلفات باللغة العربية وبعضها باللغة الانجليزية .

وجميع هذه الآثار مطبوعة ، ولم يبق مخطوطا من آثاره الا بعض رسائله التى كان يبعث بها الى السيدة - مارى حورى - وهى من أجمل ما كتب .

وقد بدأ جبران حياته الفنية والأدبية والفكرية قاصا روائيا ، تراوحت كتاباته بين الغنائية الذاتية وبين الواقعية القريبية من الغنائية الذاتية ، يتناول فيها أمور المجتمع ومشكلاته أو مشكلات حياته الخاصة ومناسبتها ، ناقدا فاحصا كما تنطق بهذا كتبه الأولى : الأرواح المتمردة ، عرائس المروج ، الأجنحة المتكسرة .

ولكنه عندما ازداد أوار انطوائيته المضطربة القلقة المألمة ، جنح الى الحوار والقصص الرمزيين متخذا الموضوعات والأشياء خاص

والحركة الحوارية والقصصية رموزاً لأفكاره ومشاعره ، وكلها من صميم معاناته اوجود ومشكلاته وجانبه الفلسفى . الدينى أو الاجتماعى أو الأخلاقى .

وقد ميز جبران قلقه العميق المتواصل بين الشك والمحبة . هذا القلق الذى أوجع ناره فيه اصطدامه بالفيلسوف الألمانى - فريدريك نيتشه - وقد أخرج هذا الاصطدام جبران من وحدته ليعيش من جديد فى صراع عنيف بين الايمان بالله وبين الكفر بكل عقل أو نظام فى الوجود من جهة ، وبين الفرقة الانسانية المحبة للانسان ، وبين اهدار دله ، قيمه انسانية .

وذلك جبران يتأرجح بين تيارات مختلفة من الثقافات : أبرزها فلسفة نيتشه الوجودية الاجتماعية المحددة ، وبهذا كان لرمزية عند جبران الى جانب ما أوتى من قوة الخيال نزوع صوفى انسانى الى الله - سبحانه وتعالى .

والرمزية هى أسلوب جبران تظهر فى شكلين : رمزية جزئيات الجملة عنده بين تشبيه واستعارة رمزية ، شأنه فى هذا شأن عامة الأدباء وبخاصة العرب القدامى .

ورمزية أسلوبه الذى كان الحوار والقصص الرمزيان مظهرين من مظاهره التعبيرية الفنية .

- ٣ -

تحليل النص :

جلبت الحرب العالمية الأولى على الانسانية كلها ما جابت من ويلات وشور وفتور وفوازل وآلام ، وكان نصيب لبنان - وطن جبران وماوى عائلته وذويه الأول - من ويلات هذه الحرب كثيراً ، حيث فتكت المجاعة بأهله ومات منهم خلق كثير متأثراً بما تعرض له من ضراوة الجوع والحرمان الى جانب ما كان يزرع تحته من نير الظلم والطغيان تحت وطأة الاستبداد العثمانى العاشم وقبضة الاحتلال الفرنسى البغيض .

وهذا النص الأدبي يصور عذابة جبران الوجدانية بما فيها
من معاني الانسانية والوطنية والحزان ، حينما حدثت المجاعة بالشرق
عقب الحرب العالمية الأولى — كما ذكرنا — وحيل بين المهاجرين وأهليهم
الذين حصدتهم الجوع •

كما أنه تصوير تائر حزين جسد فيه متاعره القومية وأودع فيه
آلامه الحزينة ، وعبر فيه عن لوعته وأسائه ، لما حل بأهله وبني وطنه
من فقر وجوع وموت ذليل • وفيه ترجمة صادقة عن حنينه الى وطنه
وشوقه اليه وعظمه على هذا الوطن المهين معربا عن أمنيته الدبري
في أن يكون بين هؤلاء المنكوبين يتساطروهم المحنة ويقاسمهم الأسى
ويشاركهم فداحة الخطب الذي نزل بهم ، بل انه ود لو كان بين أهله
مضطهدا كما اضهدوا ، معذبا كما عذبوا ، جائعا كما جاعوا ، سائرا
في موكب الموت كما ساروا ، فهذا كله أخف وقعا على نفسه مما يعانيه
بعيدا عنهم من متاعر الأنين ولوعة الحسرة لما وصل بوطنه من ظلم
فادح ومصاب أليم • بل انه ذهب الى أبعد من هذه الأحاسيس حينما
تمنى أن يكون في وطنه أثناء محنته ، وأن يكون مخلوقا من عالم
النبات أو الثمر أو الطير حتى يلتهمه الجائعون يسدون به الرمق
ويقيمون به الأود حتى تبقى لهم الحياة •

وجبران اذ يصور هذه المتاعر القومية والعواطف الانسانية
لم يفته أن يعلن صرخة مدوية في وجهه الظلم والظالمين من الحكام
الطغاة ، ويهيب بقومه أن يثمدوا على واقعهم الأسيف ، وأن يشنوا
ثورتهم على حكامهم الطغاة المستبدين ، حتى ولو قادهم ذلك الى الموت ،
لأن الموت في سبيل طلب الحرية أشرف من الحياة في ظل الاستسلام •
كما يحرض أمته ويغريها بأن تفرع كلها الى ساحة القتال الذي
يخلصها من سيطرة الغاصب عايتها وتلاعبه بمقدراتها ، فذلك أكرم لها
من أن تبقى ذليلة تنثن تحت قبضة الطغاة • وهو ينعى على الظلم
والظالمين ، ويترجم عن ثورة كامنة في أعماقه من ظلم البشرية التي
أصمت آذانها عن الاصغاء لصراخ المنكوبين وعويل النائحين ، الذين

ضاقوا بجذع المستبد الذى التهم خيرات بلادهم وتركهم يتصورون من المناقاة ويتجرعون الحرمان ، حتى ماتوا صامتين ، لأن آدان البشرية قد أغلقت دون مراقبتهم •

- ٤ -

خصائصه الفنية :

كان جبران فى طبعة الأدباء المهاجرين الذين أنروا أدبنا الحديث بأسلوبهم الأدبى الجديد ، وأخيلتهم التصويرية المجنحة ، واستعاراتهم الجديدة المبتكرة ، وبيانهم الطلى الذى يترقرق عذوبة ورقة ، على ما ينطوى عليه من روح ثائرة متمردة ، حتى نسب اليه أسلوب الانشاء العسرى الخيالى العاطفى ، لأنه كان زعيم مدرسة التجديد ، والمؤثر الأول فى الاتجاهات الفكرية الانسانية والتأملية ، وفى استلهاهم الطبيعة وفى التحرر الفكرى والتعبيرى وفى الخيال المحلق والرمزية الحلوة •

— وكان جبران أجراً من انتقض على الأساليب القديمة ، وفتح الكلمة آفاقاً جديدة فى عهد شل فيه الفكر وجهد اللفظ وتغلص الهدف » •

وهذه هى السمات العامة التى ميزت جبران فى كتاباته •
— وفى النص الذى بين أيدينا كثير من هذه السمات الفنية ، ففيه ثورة رومانسية على ما أصاب وطنه من آلام ومحن ، وفيه تصوير عاطفى لما كان يعاني منه فى غربته من مرارة ووحشة ولما كان ينتابه من مشاعر الحنين الى وطنه ، وفيه ثورة صارخة على ظلم بنى الانسان للضعيف المقهور ، وهذه المعانى والأفكار تناولها جبران فى أسلوب تصويرى وكساها ثوبا بيانياً جديداً ، وعبر عنها فى ألفاظ عذبة رسيقة جميلة ، وفى موسيقى صافية جميلة ، وفى براعة تصوير ، وأفتان فى تأليف الصور الجديدة المبتكرة •

— وتلاحظ هذا كله فى الفقرة الأولى فى 'النص' الذى يقول فيها
جبران :

« مات أهلى وأنا فى قيد الحياة ، أندبهم فى وحدتى وانفرادى ..
مات أحبائى وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم ..
مات أهلى وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ،
وأنا هنا أعيش مثلما كنت عائشا عندما كانوا جالسين على منكبى الحياة
وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس »

ففى قوله : « وأنا فى قيد الحياة أندبهم » تصوير لمشاعر
الأسى وأنت الازل وبرمه بالحياة التى قيدته عن الحركة الحرة التى
تحل به الى ما يتطلع اليه من آمال ،

وفى قوله : « عندما كانوا جالسين على منكبى الحياة وهضبات
بلادى مغمورة بنور الشمس » تصوير لحال قومه عندما كانوا يعيشون
مطمئنين قبل النكبة التى قهرتهم والمحنة التى ألمت بهم ، حيث كانوا
جالسين على منكبى الحياة يغمر نور الشمس هضبات بلادىهم كما يغمر
الماء الغزير ما ينصب عليه ، وهذه صور جديدة فيها جراه فى
استخدام الألفاظ وتجسيم الأشياء ، والنص ملئ بهده الصور .
كقوله : « ولو استركت أمتى بحرب الأمم وانقرضت عن بكرة أبيها
فى ساحة القتال ، لقلت : هى العاصفة الهوجاء ، تصهر بعزمها الأغصان
الخضراء واليابسة معا ، والموت تحت أغصان العواصف ، أشرف منه بين
ذراعى الشيوخ »

— رأيت الى هذه العاصفة الهوجاء التى تصهر الأغصان
الخضراء واليابسة معا بعزمها الحديدى ؟ ثم تأمل الموت تحت أعصان
العواصف وما يرمز اليه هذا التعبير من عدم استكانة لذل أو خضوع
لقهر ، فهو أشرف من الموت بين ذراعى الشيوخ بعد أن ينسلخ العمر
وينقضى تحت وطأة الازل والاستبداد دون ثورة معبره عن مشاعر
وطنية وأحاسيس قومية .

وقد ساعد جبران على الافتتان غي ابداع الصور الجديده ودقة
تأليفها أنه كان رساما قبل كل شيء ، فالصورة عنده عماد التعبير .
يتصور بخياله الريح فيفكر ويحس ، وتلمع الخاطرة في ذهنه فتشف
عن صورة ، وقد لا تكفيه الصورة فيشبهها بصورة أخرى ولذلك نثرت
المتشابهة في كتابته حتى عد رساما أكثر منه كاتباً » .

ومن طريف صور في غير هذا النص قوله : « أنا غريب في
هذا العالم ، وفي الغربة وحشة موحجة ، تجعلني أفكر أبداً بوطن
سحري لا أعرفه ، وتملاً أحلامي أشباح أرض قصية ما رأتها عيني » .
« في المساء ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء ، اذا سكن
الليل رقدت الحياة ، واذا انقصف ألقى السماء بذور الغد في أعماق
ظلمة الليل » .

ففي مثل هذه الصور الغنية الجميلة تتفتح الحركة والحياة
في سبيل تجسيم المعنى والرمز التعبيري الى ما استهدفه الكاتب في
إطار تصويري رائع وتعبير أدبي راق ، حتى يخيّل الى قارئ أية
قطعة أدبية لجبران أنه أمام قصيدة شعرية أفن في إبداعها خيال
تساع مصور — ولا غرابة فلقد كان جبران شاعراً كذلك وان يميز في
الكتابة عنه في الشعر .

وهن نمادج شعر جبران قوله في قصيدة — المواب — :
ليس في الغابات راع لا ، ولا فيها القطيع
فالشهت يمشي ولكن لا يجاريه الربيع
خلق الناس عبيداً للذي يأبى الخضوع
فاذا ما هب يوماً سائراً سار الجميع
اعطى الناي وغن فالغنى يرعى العقول
وانين الناي أبقي من مجيد وذليل . . لح .
وهن صور نثره الذي تتمثل فيه الخصائص الفريدة المميزة
لأسلوبه قوله :

« أنا عريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاربها غلم أجد سقط
راسى ولا اقيت من يعرفنى ولا من يسمع بى » •

« أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة ، وأنثر ما تنظمه ، ولهذا أنا
عريب وسأبقى غريبا حتى تحفظانى المنيا وتحملنى الى وطنى » •

يقول عنه أحد من عنى بدراسته : « كان جبران دا أثر بالغ فى
الآداب العربية والغربية على السواء ، فلقد أوجد فى اللغة العربية
مدرسة بيانية جديدة تخاطب جميع الحواس وتحدث الجو المساحر ،
وتنثر من الأذكار ما يغذى العقول ويرهف الآذان ، وأصبح قدوة
للأدباء الشباب فى الأقطار العربية » •

وقال له الرئيس الأمريكى الأسبق - روزفلت - « أنت أول عاصنة
انطلقت من الشرق واكتسحت الغرب ، ولكتها لم تحمل الى شواطئنا
غير الزهور » •

تم بحمد الله

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٨٧٣٦

دار التوفيق للنشر

للطباعة والجمعيات

الرقم ٣٠ من شارع الميادين
بجانب دار الأحياء

